روايات عبير

آن هامبسون

قريبًا يا مَلايكي

www.elromancia.com

مرمورية

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 133

قريبا يا ملايكي

الحب، هذه العاطفة المذهلة التي لا يمكن ان يسبر اغوارها أحد، يقطن كل زاوية ومنعطف من حياتنا، يتربص بنا في الغابة او الصحراء، في ثنايا الليل الملتفة بالأسرار او صفحة النهار المشرقة كضحكة طفل. نكتشفه دائما حتى ونحن مشغولون بأشياء أخرى، كالرحلة التي كانت تقوم بها لين الحسناء لتهرب من رتابة حياتها اليومية. ذهبت لتمضي عطلتها في ايرلندا وتنسى عالم العمل والضجيج في ربوعها الخضراء. ولكنها لم تتصور ان رحلتها هذه ستقلب حياتها رأسا على عقب.

استطاعت ان تفلت في المرة الأولى من الفجري المتشرد الذي التقته في مخيّم للفجر على الطريق، لكنه تمكن منها في المرة الثانية وكان اللقاء هذه المرة مليئا بالأخطار... سجنها في عربة غجرية بعدما ارغمها على الزواج. ومن بين قضبان عذابها انبلج شعور بالانسحار لم تستطع مقاومته.

هل هذا هو الحب؟

www.elromancia.com

١ - غابة الغجر

كانت السيارة تسير على مهل في الطريق الساحلي، تجلس خلف مقودها فتاة جميلة تتأمل روعة المشهد الطبيعي. هضاب خضراء تنغمس اطرافها في رمال الخليج الصغير الذهبية وتحجب قسماً منها اشجار عالية مورقة.

كانت لين سلدن تنوي قضاء العطلة في ايرلندا الجنوبية برفقة صديقة لها، لكن هذه الاخيرة اعتذرت عن المجيء فقررت لين المضي في رحلتها وحدها. انتقلت من انكلترا الى ايرلندا بحراً وبذلك تمكنت من شحن سيارتها على الباخرة نفسها.

امضت الفتاة الى الآن عشرة ايام رائعة تتنقل في ارجاء ايرلندا الخضراء الساحرة. جمال الطبيعة انساها وحدتها فلم تكن تتذكر ذلك

الا عند رجوعها في المساء الى الفندق لتخلد للنوم. وبعد ان امضت لين يومها في مدينة دونيغال استعدت للعودة الى الفندق الواقع في اطراف المدينة لتتوجه في الصباح الباكر جنوباً نحو دانليري حيث ستستقل الباخرة بعد ايام عائدة الى انكلترا.

اوقفت السيارة الى جانب الطريق واخرجت من حقيبتها خريطة المنطقة. عيناها تحدقان في الورقة، في حين ان فكرها شارد في امور اخرى وخاصة في عرض الزواج الذي تلقته قبل اسبوعين من زميلها في العمل توماس. شاب لطيف ومهذب لكنه لا يتمتع بأية جاذبية لا بل هو، كما وصفته احدى زميلاتها، بليد ومثير للضجر. وعدته لين بالتفكير جدياً في الأمر لأنها بدأت تشعر بالملل من العيش وحيدة في شقتها الصغيرة التي تتقاسم حمامها مع شاغلي الشقة المجاورة! فلا بأس بفكرة الاستقرار في منزل كبير مع رجل طيب ورقيق لبناء عائلة صالحة. الى جانب ذلك، هناك سبب آخر يجعل لين تأخذ في الاعتبار عرض الزواج. وهو شعورها بالأسف نحو توماس الذي فجع بخيانة زوجته له واضطر للجوء الى الطلاق. وجدت الفتاة في معاناته قواسم مشتركة مع ما تعرضت له حياتها العائلية. تمتعت لين بطفولة سعيدة بين والدين محبين وفي منزل وافر الأمان، لكن والديها انفصلا عن بعضهما وهي لم تتجاوز بعد السبعة عشر ربيعاً بعد ان وجدا ان طريق الواحد يختلف عن طريق الآخر. وخلال ثلاثة اعوام تزوجت الوالدة من رجل اميركي وهاجرت معه الى اميركا، كما ان والدها تزوج من سيدة اقنعته بالهجرة الى استراليا. وهكذا اصبحت لين وحيدة وهي في العشرين، تعيش دون عائلة ولا تتكل الا على الله ونفسها. اما الآن، وبعد اربع سنوات من الوحدة القاسية، فقد قررت ان تجد الرجل الذي ينتشلها من عذابها ويقاسمها حياة هنيئة.

ايكون هذا الرجل توماس؟ سؤال لم تجد له بعد جواباً شافياً.

تنهدت وضغطت على دواسة البنزين وهي تقود السيارة في طريق فرعي ضيق محاط باشجار عالية. بعد ان توغلت بضعة كيلومترات

وصلت الى غابة كثيفة تقع في وسطها بحيرة جميلة يقوم قربها مخيم للغجر. وجود جماعات الغجر في ايرلندا امر مألوف اكثر من وجودهم في انكلترا. غريب امر هؤلاء القوم يتنقلون من مكان الى آخر، لا يحبون الاستقرار كباقي الناس، يبحثون عما لا يجدون فيستمرون في التجوال. ولولا النفايات التي يخلفونها وراءهم لكانوا يزيدون من روعة المناطق الريفية لتناغم طريقة حياتهم وليسهم واكلهم مع جوها...

فجأة، اذ تجاوزت السيارة اولى عربات الغجر، اصدر المحرك صوتا قوياً ثم توقف. ترجلت لين من السيارة عابسة وتحلق حولها عدد من الاطفال الفضوليين. ثم تقدمت منها غجريتان فيما هي منهمكة بالنظر الى المحرك تحاول عبثاً معرفة سبب العطل لأنها ليست خبيرة في شؤون الميكانيك. وبرز من بين الجميع شاب اسمر اللون عارضاً المساعدة. رفعت لين عينيها لترى شاباً طويلاً مفتول العضلات، اسود العينين، اجعد الشعر. نظراته الثاقبة ارعبتها فبلعت ريقها من الخوف.

قالت له اخيراً:

- تعطل محرك سيارتي.

- هل نفد منها الوقود؟

اومأت لين بالنفي واجابت:

- الوقود فيها اكثر من كاف.

وجدت الفتاة نفسها تحدق لا شعورياً في هذا الغجري، تدرس ملامحه القاسية بانتباه. لاحظت تعالياً وغطرسة في هذه الملامح يجعلانه مختلفاً عن بقية قومه. فالغجر عادة اناس بسطاء متواضعون، علمهم الفقر ان الخضوع هو الوسيلة الوحيدة لكسب لقمة العيش.

قال الغجري الأسمر:

- بما ان الوقود متوافر لا اعلم سبب الداء. نحن نستعمل الجياد لا السيارات، لذلك خبرتي في المحركات محدودة جداً. كل ما يمكنني

فعله هو ارسال احد الى المدينة ليحضر ميكانيكياً.

- هذا لطف كبير منك، لكني سأتدبر الأمر وحدي فلا داع للازعاج.

هز الرجل كتفيه علامة عدم الاكتراث، لكن لين تدرك انه كاذب من خلال نظراته الشغوفة والفاحصة. ولأنها لمحت شاباً يتوجه على حصانه نحو المدينة ليحضر ذلك الميكانيكي.

شعرت لين بالحرج وهي واقفة بين هؤلاء الغجر. فبدأت تتمشى حتى ابتعدت عن المخيم في طريق موحش لا اثر فيه لانسان، تحيط بجانبيه خضرة عذراء تبدو من خلالها مياه البحيرة مرآة تنعكس على صفحتها بفرح اشعة الشمس الذهبية.

وبينما هي تتأمل شاعرية المكان وسحر جوه الغامض سمعت وقع خطى تتقدم منها على مهل فارتعدت. علمت انه الغجري الأسمر. تراءت لها اشياء كثيرة مرعبة اذ رأته يقترب منها بكل ثقة. وخانتها شجاعتها حتى كادت تصاب بالاغماء.

تحدث الشاب بنبرة آمرة:

- انت انكليزية، اليس كذلك؟ ظننت في البدء انك اميركية.

توقف عن الكلام واقترب من الفتاة. عضلاته القوية يبرزها قميصه الأسود الضيق و«غجريته» يدل عليها المشلح الأحمر الوسخ الملفوف حول عنقه. لو اراد فنان رسم متشرد لوجد فيه النموذج الأمثل. ارتجفت لين تراودها فكرة الفرار ولكن الغجري لم يدع لها الفرصة لتجد منفذاً. تقدم منها بخفة واطبق على ذراعها دافعاً اياها الى مكان كثيف بالاشجار. خلال ثوان صارت بين ذراعيه القويتين.

صرخت بأعلى صوتها بعد ان افلحت في التحرر من قبضته:

- ايها الوحش!

وغرقت لين في رجمه بكلمات جارحة خرجت من فمها بطريقة

عفوية حتى لم تعد تدري ما تقول.

لم يأبه الرجل لكلماتها بل طوقها بذراعيه من جديد ضاحكاً وكان مقاومتها تزيد لعبته اثارة. وبينما هو يهم بطرحها ارضاً داس احد على غصن يابس فسمع صوت انكساره عالياً. التفت الرجل وهو يزمجر غضباً ليواجه فتاة غجرية جميلة يتطاير الشرر من عينيها.

صاحت الغجرية في وجهه:

- الم تكتف من افعالك القبيحة بعد؟ دع الفتاة وشأنها ايها الوقح!

ذهلت لين لاطاعة الرجل الشرير اوامر الغجرية من دون نقاش. وما كاد يحرر يدها المليئة بالخدوش حتى اطلقت ساقيها للريح ولم تتوقف، بعد ان تجاوزت سيارتها المعطلة، الا عندما بلغت الطريق العام.

بعد يومين من الحادثة جلست لين تفكر في كيفية افلاتها من قبضة الغجري الاسمر. ولحسن حظها وجدت باصاً اقلها الى الفندق في المدينة، ومن هناك اتصلت هاتفياً بمرآب للسيارات فتكفل الميكانيكي باصلاح السيارة وجلبها في اليوم التالي بعد ان تبين ان العطل كان بسيطاً للغاية.

سارعت لين بعد ذلك الى مغادرة المنطقة. وساهم انتقالها بين الطرقات الجميلة على نسيان الحادثة الأليمة. فاستعادت روحها المرحة ورغبتها في اكتشاف المزيد من ايرلندا.

وصلت الى منطقة تدعى **لاف كوريب** حيث وجدت المشاهد رائعة تحبس الانفاس. الجبال، المراعي الواسعة، البحيرات، الغابات... كلها خلابة تسحر الألباب، تمتع العين والنفس وترحب بانسان المدينة التعب لينفث في رحابها سموم همومه واحزانه.

الشعور الوحيد الذي انتاب لين وهي تقود السيارة في هذه الارجاء هو الأمان التام. وصلت الى واد اخضر تبحث عن مكان تمضي فيه ليلتها. ووفقت في ايجاد المكان الملائم، مزرعة صغيرة يستقبل اصحابها النزلاء في جناح خاص مقابل مبلغ قليل من المال.

اوصلتها المرأة صاحبة المزرعة الى غرفتها البسيطة النظيفة. واطلت لين من النافذة لتشاهد المنظر الجميل والجبال تكسوها الغابات الكثيفة. ثم لاحظت مدخنة بعيدة في وسط جبل اخضر.

سألت لين المرأة وهي تشير الى المدخنة:

- اهناك بيت في الجبل؟ اظن اني رأيت مدخنة.

- نعم، هذا قصر السيد دوغي.

لاحظت الفتاة تغيراً في نبرة المرأة التي تابعت تقول:

- السيد دوغي هو مالك كل هذه الأراضي الواسعة وقد ورثها عن والده الذي كان الحاكم الاقطاعي للمنطقة. بناء فخم تحيط به حدائق رائعة.

- هل يسمح للعامة بزيارة الحدائق؟

- نعم، الأبواب تفتح للزوار يومي الثلاثاء والسبت في فصل الصيف.

- اهوى التجول في حدائق القصور الضخمة.

وتابعت بعد ان تخيلت نفسها بين احضان حدائق قصر دوغي الغناء:

- اود لو سمحت يا سيدتي ان احجز هذه الغرفة ليومين لأني اريد زيارة هذه الحدائق.

- بالطبع يا آنسة سلدن بامكانك حجزها المدة التي تريدين، فهناك اشياء كثيرة يمكنك القيام بها في هذه المنطقة. باستطاعتك مثلاً، اذا كنت تجيدين ركوب الخيل، استئجار جواد من مدرسة الفروسية والتوجه الى الغابات. اعجبت لين بهذه الفكرة فهي لا تزال تجيد الفروسية التي تعلمتها ايام الطفولة الهنيئة. شكرت المرأة وتوجهت فور خروجها الى الحمام لتطفىء بالمياه الباردة حر النهار الشديد.

في السادسة نزلت الى غرفة الطعام لتتناول العشاء. كان في الغرفة عروسان شابان فانضمت الى طاولتهما وسرعان ما بدأ تبادل

الحديث.

سألت لين الرجل المدعو بوب:

- انحن النزلاء الوحيدون هنا؟

- كلا هناك اربعة آخرون ذهبوا لتناول العشاء في فندق قريب.

- متى جئتما الى هذا المكان؟

هذه المرة تكفلت العروس ماري بالاجابة:

- منذ يومين فقط، لكن المنطقة جميلة ويحتاج اكتشافها كلها الى شهر على الاقل.

قالت لين:

- هذا صحيح، قيل لي ان حدائق قصر دوغي تستحق الزيارة.

سارعت المرأة الشابة الى القول:

- جمالها لا يوصف يا آنسة لين، لقد زرناها يوم الثلاثاء الماضي ودهشنا لروعتها.

- وفي اي وقت تفتح الابواب؟

اجاب بوب:

- تفتح من الثانية حتى الخامسة بعد الظهر.

انطلقت لين ظهر السبت صوب حدائق قصر دوغي. وبعد ان سلكت بسيارتها طريقاً منحدراً وصلت الى سفح التلة التي يقوم عليها القصر وبدأت بالصعود نحوه الى ان بلغت سوراً كبيراً في وسطه بوابة مفتوحة يقف بجانبها حارس يرتدي ثياباً انيقة. اضطرت الفتاة للانتظار في الخارج لانها وصلت قبل الموعد المعين ببضع دقائق. في تمام الثانية دخلت الى موقف مخصص لسيارات الزوار بعد ان دفعت مبلغاً صغيراً يذهب الى الأعمال الخيرية، فصاحب القصر لا يتقاضى شيئاً من الزوار.

اخيراً وجدت لين نفسها تتجول في هذه الجنة الساحرة. اينما نظرت وجدت جمالاً وبهاء. ممرات تظللها اشجار سخية. برك ماء صغيرة تغطيها الزنابق جداول تتدحرج بين الصخور تعلوها جسور

خشبية صغيرة مكسوة بالنبات المتسلق يتدلى فوق المياه العطشى الى خضاره. تماثيل بديعة وسط نوافير مياه وتشكيلات من اجمل الزهور وازهاها. توقفت لين مراراً لتقرأ اسماء الشجيرات والازهار النادرة، فتحت كل مجموعة وضعت لوحة صغيرة فيها شروحات موجزة عن النوع. كما قرأت على احدى اللوحات ان شرفات الجهة الجنوبية من القصر صممتها موريل زوجة الكونت دوغي حاكم المنطقة في القرن التاسع عشر.

وقفت لين مطولاً تتأمل جمال القصر نفسه وروعة فن العمارة العائد الى عصر النهضة. كما لاحظت ان البناء جدد في القرن الثامن عشر لأن هناك زوائد كثيرة مصممة حسب اسلوب العمارة السائد في تلك الأيام.

وصلت لين خلال تجوالها الى حديقة مليئة باشجار الزيزفون وشجيرات اخرى اجنبية مستوردة من القارة الاميركية. حديقة اقل ما يقال فيها انها فاتنة جعلت الفتاة تنسى كل شيء وتعتبر ان العالم تقلص ليصبح هذا المكان الخلاب الذي لا موطىء قدم فيه لحزن او لهم. لم تتمكن من كتم شعور بالحسد تجاه مالكي القصر. وتمنت لو تكون مكانهم. نفذت ببصرها من خلال قوس حديدي الى قسم قديم من القصر ترك على حاله من دون ترميم. جدران متشققة مغطاة بنبات اللبلاب المتسلق كسجادة خضراء مصنوعة بيد امهر الفنانين...

حان وقت العودة الى الفندق وتمنت لين رؤية مالك القصر قبل ذهابها. لا بد انه رجل متزوج يعيش في سعادة تامة مع عائلته. ولكن كيف يتمكن سكان القصر من حبس انفسهم في الداخل عندما تفتح الأبواب للزوار؟

فيما هي متوجهة الى البوابة الرئيسية لاحظت لين مجموعة من الزوار متحلقين حول نافذة من نوافذ القصر. تقدمت منهم يدفعها فضول الاكتشاف فسمعت الحوار الدائر بينهم.

قالت سيدة متوسطة العمر:

ـ هذه اللوحة تمثل والدته.

علقت سيدة اخرى:

ـ كانت رائعة الجمال.

ـ من المؤسف انها اقدمت على هذا العمل!

ـ يقال ان عائلتها رفعت علماً اسود على شرفات القصر بعد الحادث.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ معناه انها اعتبرت ميتة بالنسبة لعائلتها بعد الذي سببته لهم من عار.

ـ في اي حال هي ماتت بعد ذلك بوقت قصير، اليس كذلك؟

ـ ماتت وهي تضع طفلها.

ـ وهل تعهد اهلها الطفل؟

اجاب احد المتفرجين بانكليزية تلونها اللهجة الايرلندية الموسيقية:

ـ البعض يؤكد ذلك ولكني في الحقيقة لا اعلم مدى صحة الخبر.

ـ لكنه اصبح مالك القصر وسيد الأراضي الآن برغم كل ما حدث.

ـ السيد دوغي وجد هذه اللوحة وامر بوضعها هنا ليعيد الاعتبار الى والدته المنبوذة.

ـ يا لها من قصة محزنة! كم يبلغ دوغي من العمر؟

ـ اعتقد انه اصبح في الثلاثين.

ـ هل هو متزوج؟

ـ لا، سرت اشاعات كثيرة عن علاقة تربطه بممثلة سينمائية كبيرة. لكنها اخبار ملفقة لا تمت الى الحقيقة بصلة. يقال عنه انه يؤمن بالحب من اول نظرة، وعندما يجد ضالته المنشودة سيتزوج فوراً.

- اتمنى لو استطيع التعرف اليه لأنه، كما سمعت، شاب باهر الجمال.

- ما يميزه عن غيره من الرجال هو قصته المحزنة.

- ما هي القصة التي حدثت مع امه؟ انا لا اعرفها كاملة.

- تعرفين يا نانسي ان المرأة هربت مع ....

لم تسمع لين من القصة اكثر من ذلك. لأن المجموعة ابتعدت عنها باتجاه قسم آخر من الحديقة. نظرت من النافذة الى داخل القصر حيث علقت اللوحة المعنية فرأت رسم امرأة رائعة الجمال ترتدي فستاناً من الحرير الخالص، شعرها الذهبي يتدلى بسخاء على كتفيها الناعمتين... وعلى بساطته، لا يخفي وجهها نظرات ارستقراطية تنضح من العينين الزرقاوين. شفتاها الورديتان ترسمان ابتسامة السعادة والبراءة. من المحزن انها ماتت عند الوضع. لماذا تحدث مثل هذه الاشياء المأساوية للناس؟

خرجت لين من الحدائق وهي تفكر بهذه القصة التي لم تتمكن من الاطلاع على كامل فصولها. شعرت بفضول كبير لمعرفة الحقيقة وللتعرف الى صاحب القصر الذي انقذ لوحة والدته لينقذ شرفها الضائع.

في الصباح التالي حزمت لين حقائبها ووضعتها في السيارة استعداداً للرحيل. بعد ان سددت الفاتورة ووعدت بالعودة الى المزرعة في رحلتها المقبلة الى ايرلندا، توجهت الى مدرسة الفروسية حيث تركت السيارة في موقف خاص وترجلت لتستأجر حصاناً. قررت ان تقوم بنزهة صغيرة على الخيل قبل ذهابها الى منطقة جديدة. ووقع اختيارها على فرس قوية فتية.

- هل هي هادئة؟

اجابت الفتاة المسؤولة عن الاسطبل:

- فونيلا احسن فرس عندنا. وانا اكيدة من انك ستفتقدينها كثيراً عندما تنتهين من جولتك.

حدقت الفتاة في لين جيداً وتأملت الوجه الرقيق والشعر الأسود الطويل المعقود بشريط ابيض. كما اعجبت بالقامة الرشيقة وخصوصاً بالساقين الطويلتين والخصر الضامر. لا شك في ان لين فتاة جميلة تجذب الرجال وتدير رؤوسهم...

بعد قليل كانت الفتاة الانكليزية تمتطي جوادها في الغابة التي ارشدتها اليها فتاة الاسطبل حيث يمكنها التجول بحرية وحيث لا خطر بأن تتيه لأن اللافتات منتشرة في الغابة خصيصاً لارشاد المتنزهين.

كانت اشعة الشمس الساطعة تنفذ من بين الأوراق الكثيفة بحياء، مضفية على الجو الداكن اشراقة من السحر وومضة من الغموض.

- يا الهي! كأنني في الجنة!

ضحكت لين مسرورة لانها تتمكن من الكلام والتفكير عالياً بحرية مطلقة في هذا المكان. كأن العالم اصبح ملكها لا ينازعها عليه احد.

- حسناً يا فرسي فونيلا، لنرتح قليلاً هنا.

ربطت الفرس الى شجرة ووقفت تتأملها تلتهم العشب الطري بنهم.

اجفلت لين عندما سمعت صوتاً غريباً. واخذت تحدق حولها لترى مصدر الجلبة. وشعرت بأن احداً يراقبها في هذه الغابة الموحشة. تلفتت فلم تسمع الا خفقة ورقة صفراء يحملها النسيم.

فجأة سمعت صهيل حصان فاقتربت من فرسها وحلت الحبل بيدين مرتجفتين. وقبل ان تستطيع امتطاء الفرس والابتعاد اقترب منها حصان يمتطيه... الغجري الاسمر.

تجمد الدم في عروق لين لما رأت الرجل امامها... كيف استطاع الوصول الى هنا من مخيمه بهذه السرعة؟ لا يعقل ان يكون جاء على حصانه لأن المسافة بعيدة الى حد يجعل ذلك مستحيلاً في وقت

قصير. . . لا بد انه استعمل وسيلة اخرى. ثم، من أين اتى بهذا الحصان الأصيل الذي لا يمكن ان يملكه غجري فقير؟

رفعت عينيها الى وجهه ففوجئت لأنها لاحظت امارات لم تلحظها فيه عندما حاول الاعتداء عليها بعد تعطل سيارتها قرب المخيم. رأت الى جانب وسامته مسحة ارستقراطية نبيلة وشيئاً من اللباقة والاستعلاء. يده الممسكة باللجام بدت انعم، تدل على انه لم يقم بعمل يدوي في حياته. حتى ثيابه تبدلت، لم يتخل عن قميصه الاسود لكن المشلح الأحمر الوسخ اختفى ليحل مكانه مشلح آخر نظيف. السروال الممزق الذي كان «يغلفه» في المرة السابقة تغير ليصبح سروالاً انيقاً. . . لا شك انه سرق الحصان والثياب، ولكن كيف تبدلت يداه من يدي متشرد الى يدي ارستقراطي نبيل؟

وقف الغجري يحدق فيها باستغراب كأنه فوجىء لوجودها هنا بعد الحادثة.

حطم جدار الصمت اخيراً بقوله:

- صباح الخير.

اخذت لين تزن فرص الهرب وجسمها الرقيق يرتعش خوفاً وغضباً. نظرت صوب الممر القريب الذي يوصلها الى مدرسة الفروسية وبخفة لم تعهدها في نفسها من قبل قفزت الى الحصان والسوط في يدها. انطلقت بسرعة وكي تعاقب الغجري على فعلته وتؤخره عن اللحاق بها ضربته بالسوط على وجهه. وضع الرجل يده على خده الدامي وفي عينيه ذهول كبير.

- تستحق اكثر من ذلك ايها الغجري المتشرد! كيف تجرؤ على التحدث الي؟ عد الى قومك ولا تتحرش بالناس المتمدنين!

قالت لين كلماتها هذه وهي منطلقة على فرسها تحثها بضربات خفيفة من قدميها على الاسراع في العدو. اخذت تخترق الغابة بسرعة عمياء وخوفها يتعاظم مع اقتراب صوت حوافر جواده منها. اذا تمكن من اللحاق بها سيقتلها ويرميها في الغابة! ازداد هلعها لهذه

الفكرة ولم تعد تدري ما تفعل لتخرج من الورطة المميتة. اخذ الحصان يقترب منها اكثر فاكثر وصاح فيها الرجل:

- توقفي!

استمرت لين في العدو والعرق يتصبب من جبينها. لكنها ضلت الطريق بسبب ذعرها الشديد ولم تجد ممر الخروج من الغابة. فصارت تصرخ باعلى صوتها:

- النجدة! النجدة!

دب التعب في الفرس فخفت سرعتها في حين ان حصان الغجري الجبار ما انفك يدنو منها.

توقفي والا اوقعتك عن الفرس!

تجاهلت الفتاة اوامره باحثة دون جدوى عن وسيلة للافلات.

- دعني وشأني! ارحل عني. سأشكوك الى رجال الشرطة. . .

توسلات وتهديدات لن تجدي نفعاً مع هذا الرجل الشرير.

اخيراً صار الغجري بمحاذاتها فبذلت لين المستحيل للصمود على فرسها المتعبة. مد الرجل يده وخطف من يدها اللجام وشد حتى اجبر الفرس على التوقف. ثم نزل عن حصانه وانزل لين عن فرسها. شعرت الفتاة انها سجينة نظراته الغاضبة ووقفت عاجزة عن الحراك امام سطوة قامته العملاقة.

رفع الغجري يده الى خده الدامي يتحسس الجرح العميق الذي سببته ضربة السوط.

سألها:

- هل الفرس لك؟

فوجئت لين عندما وجدت نفسها تجيب بهدوء:

- لا، استأجرتها من مدرسة الفروسية.

هز الرجل رأسه وكأنه يعرف المدرسة المذكورة والتفاصيل الاخرى. ثم اخذ يحدق في الفتاة لثوان مرت ثقيلة كأنها الدهر قبل ان يقول:

- لا خوف على الفرس لأنها تعرف طريق العودة الى الاسطبل.

وضرب فونيلا ضربتين خفيفتين على خاصرتها فبدأت بالعدو حتى اختفت عن نظر لين بعد قليل.

وجه الغجري اليها سؤالاً يعرف الجواب عليه.

- من اين انت؟

- انا انكليزية وجئت الى ايرلندا لأمضي اجازتي السنوية... انزل في مزرعة قريبة من هنا.

هز الرجل رأسه مرة جديدة كأنه يعرف المزرعة كذلك. لا بد انه خبير في المنطقة لأن الغجر يجوبون البلاد طولاً وعرضاً فيتعرفون الى معظمها.

- قلت انك في اجازة، فهل يعني هذا انك لوحدك؟

- تماماً، انا اجوب البلاد بسيارتي التي تركتها في موقف قريب من الاسطبل.

واصل الرجل طرح الاسئلة وواصلت لين الاجابة من دون ان تدري مدى خطئها في اعطائه معلومات يجب ان لا تطلعه عليها. ولم تع ذلك الا عندما سمعته يقول:

- انت وحدك هنا...

وعندما سألها لماذا ضربته اجابت لين وفي صوتها نبرة الازدراء:

- لأنك وجنسك حثالة المجتمع ورعاع القوم!

سرعان ما ندمت لتهورها وطيشها اذ رأت في عيني الرجل عاصفة من الغضب ونية على ارتكاب عمل شرير. اقترب منها وزمجر:

- رعاع القوم؟ ستدفعين ثمن كلماتك غالياً.

وبسرعة حملها ورمى بها على ظهر الحصان، ثم قفز خلفها وانطلق مسرعاً نحو عمق الغابة.

تساءلت لين عما ينوي الغجري فعله بها ولكنها لم تفلح في تصور مصيرها الذي لن يكون مشرقاً بالطبع، يعزز ذلك غضب قريب من الجنون يسيطر على خاطفها.

ازداد الحصان توغلاً في الغابة ولين تكاد تصاب بالاغماء، والرجل ملتصق بها تحس بنفسه يلفح عنقها وهو يقود الجواد بسرعة كبيرة. اخذت ترتعد كورقة خريفية وهي تسأل نفسها عما فعلته لتستحق هذه النهاية السوداء. اخيراً قرر الرجل التنازل عن صمته فأعلن:

- نحن ذاهبان الى المخيم وسنصله قريباً.

- المخيم... اي مخيم هذا؟

قهقه الغجري عالياً يتلذذ بخوفها واجاب:

- ألا تعلمين ان الغجر يعيشون في مخيمات؟

- ستندم ايها الحقير على عملك لأن رجال الشرطة سوف يرمون بك في السجن!

قالت لين ذلك وهي تعلم في قرارة نفسها ان كلامها لا يرهب الرجل فالغجر «محترفون» في الخروج على القانون. ولا يهابون السلطة. القانون الوحيد الذي يحترمونه هو ان الغاية تبرر الوسيلة. وان مصلحة القبيلة يجب ان تتأمن بغض النظر عن مصالح باقي الناس. تابعت لين بالرغم من ذلك تهديدها لعلها تنجح في العثور على نقطة ضعف في الغجري:

- تكون احمق اذا اعتقدت ان بامكانك الافلات من قبضة العدالة. الاختطاف جريمة يعاقب عليها بشدة!

لم يعلق الرجل على كلامها بشيء وظلا صامتين حتى وصلا الى المخيم حيث انتشرت عربات كثيرة. نظرت لين الى الوجوه السمراء فلم تتعرف الى احد من الذين رأتهم عندما تعطلت سيارتها. كما لم تجد الفتاة التي انقذتها يومها من قبضة خاطفها لعلها تعيد الكرة الآن.

تعالت صيحات الترحيب بالغجري:

- اهلاً بك يا رادولف!

- ما هذه الغيبة الطويلة؟

- اخيراً عدت الينا.

نشأ لدى لين انطباع بأن الغجري لا ينتمي الى مخيم معين. خصوصاً وانها تأكدت من ان هذا المكان ليس نفس المكان الذي شاهدته في السابق. فهي انتقلت بسيارتها من منطقة الى اخرى بعيدة.

تقدم من الغجري رادولف رجل كهل وقال:

- رادولف، ليس من عادتك...

اسكته رادولف باشارة من يده، ولكن الكهل تابع:

- ماذا حدث لوجهك؟ الدماء تسير منه بغزارة!

عندها رأت لين الجميع يتحلقون حول رادولف وعلامات التعجب بادية على وجوههم. سمعت بعض الكلمات الانكليزية لكن معظم الكلام كان باللغة الغجرية التي تجهلها تماماً. اوضح رادولف الأمر لقومه بلغتهم ونظراته المليئة بالحقد تصب نارها على الفتاة المصابة بذهول مطبق.

امسك الغجري بخصرها وانزلها عن الحصان فتعالت ضحكات من حولها وكأن القوم يستعدون لمرح آت ولاثارة توفرها لهم ضحية جديدة يتسلون بها...

زادت الدماء المتجمدة على خد رادولف ورقبته من رهبة شكله وجعلته يبدو شقياً اكثر واكثر. ايمكن ان تتوقع لين رحمة من انسان كهذا لا يهتم الا بارضاء غرائزه، لا يعرف ما هي المثل والمباديء التي تؤمن بها المجتمعات المتحضرة؟ حاولت الفتاة الا تفكر بما ينتظرها، لكن الرؤى السوداء كانت تغلف ذهنها كغمامة داكنة. وصورة رادولف القاسي يعبث بجمالها البريء ونضارتها الطاهرة راسية في مخيلتها. تمنت لو انها تموت! فالموت ارحم من الذل القابع وراء الساعات المقبلة... تمنت لو ان يدي رادولف الجبارتين تلتفان حول عنقها الغض وتعصران منه آخر قطرة حياة...

انصرف رادولف الى حديث طويل مع الرجل الكهل. سمعتهما لين يتلفظان ببعض الأسماء: اولاف، بوريل وغيرهما. وفهمت ان

الرجل الكهل هو اولاف وانه ورادولف يتحدثان عن بوريل، ولكنها لا تعلم ما اذا كان بوريل اسماً لامرأة او لرجل وان يكن طابع الرجولة غالباً عليه. حدقت الفتاة في وجه رادولف لتجد الاضطراب والقلق الشديدين باديين عليه. في حين كان اولاف يتنهد من وقت الى اخر ويزم شفتيه امتعاضاً. ما هو موضوع الحديث المهم الدائر بين الرجلين؟ سؤال لا يمكنها ان تجيب عليه قبل ان تلم بلغة هؤلاء القوم.

بعد ذلك بدأ القوم يوجهون الاسئلة الى رادولف فيجيب عليها باقتضاب والأولاد الحفاة المرتدون ثياباً بالية يحملقون في ثيابه النظيفة والانيقة بانبهار.

نظر رادولف الى لين فعاد الى عينيه لمعان الشر. وبلمح البصر حملها بين يديه وسط تعليقات الجميع الى عربة ارشده اليها اولاف.

صاحت لين في الغجر:

- هذا الرجل خطفني! ستلاحقون جميعكم ان لم تساعدوني!

نظرت حولها تبحث عن احدهم يتعاطف معها فلم تقع الا على وجوه ضاحكة ونظرات متهكمة. لا امل بأن يساعدها احدهم فالجميع وحدة متماسكة والأفراد يتعاونون وان على اعمال الشر.

ادخلها رادولف الى العربة ثم خرج بسرعة بعد ان اغلق الباب بعنف. هنا، في هذه العربة، لن يتدخل احد لانقاذها. عليها ان تواجه الرجل وحيدة خصوصاً وانه يبدو زعيماً او ملكاً على قومه يذعنون لمشيئته بدون نقاش. اغرورقت عينا لين بالدموع فساعة الاستحقاق حلت. شرعت تبحث في العربة عن وسيلة للخروج من سجنها الصغير. مكان قذر فيه اريكة وطاولة مستديرة مع بعض الكراسي العتيقة. في الطرف الآخر سرير ضيق، وعلى خزانة كتب مخلعة وضع مصباح زيتي يغطيه غبار سميك. كأن احداً لم يشغل هذه العربة منذ وقت طويل فالقذارة المنتشرة في ارضها وعلى محتوياتها لا توصف.

وقعت عينا الفتاة على احدى النوافذ الثلاث. كانت واسعة بعض الشيء بحيث تتمكن من التسلل عبرها، فأشرق في نفسها قبس من امل. لكن الغجري لم يحضرها الى هنا ليدعها تفلت من يده لا سيما وان قومه المنتشرين خارجاً لن يسهلوا عليها امر الفرار.

في خلدها تدور اسئلة كثيرة. من هو رادولف بالحقيقة؟ من هو بوريل الذي تحدث رادولف واولاف عنه بكثير من الجدية؟ لكن السؤال الأكثر اهمية والحاحاً يبقى: ماذا سيكون مصيرها؟

٢ ـ امرأة في شرك

دخلت لين الى زاوية صغيرة في العربة يفترض انها مطبخ. كان فيه مغسلة قذرة وفرن يعمل على الغاز أكل عليه الدهر وشرب. لم تتمكن الفتاة من تحمّل الرائحة التي تدعو الى الغثيان ولما همت بالخروج سمعت اصواتاً قريبة في الخارج. أطلت من النافذة الضيقة فرأت رادولف وأولاف يتحدثان وحيدين بعيداً عن باقي أفراد المخيم. كانا يتحدثان بالانكليزية فربضت لين تحت النافذة من دون أن تدع رأسها يطل لئلا يراها أحد واخذت تسترق السمع.

ـ اعرف أن الامر يقلقك يا رادولف لكنه حر في اختيار طريق حياته.

ـ لا تقنعني أنه محق في سلوك هذا السبيل!

www.elromancia.com

- أوافق معك والدليل اني بحثت عنه كثيراً كما طلبت مني، لكنه مراوغ كبير ولا يهدأ في مكان. منذ بضعة أيام بلغني انه موجود في أحد المخيمات فهرعت الى المكان لأجده قد غادر.

- قيل لي انه سافر الى الخارج لبعض الوقت.

- صحيح لكنه عاد الى إيرلندا الآن.

- اعلم ذلك يا اولاف والا لما كنت تراني هنا، فقد اخبرني ايفور انه في هذا المخيم.

- كنت متجهاً الى هنا اذن عندما خطفت الفتاة.

- بالطبع، والاّ لما...

توقف رادولف عن الكلام لسبب تجهله لين. ما هي بقية الجملة التي لو تمكنت من اكمالها لفهمت كل الحكاية؟ شعرت الفتاة بالخيبة لسماعها كل هذا الحديث من دون ان تستفيد منه بشيء. لكن اولاف عاد الى الكلام فسمعته يناقش رادولف في موضوعها:

- ماذا تنوي ان تفعل بها يا رادولف؟

- سأجعلها تدفع الثمن غاليا لضربي بالسوط ولنعتها إياي بالغجري المتشرد، حثالة المجتمع.

- اعذرها يا رادولف، فالناس يملكون أفكاراً خاطئة عن الغجر.

وجدت لين نعومة وتسامحاً كبيرين في صوت الرجل، لكنها لم تبن احلاماً كاذبة برغبته في مساعدتها لأن الجميع هنا يطيعون أوامر خاطفها على ما يبدو.

- انا لا اعذر احداً يسمح لنفسه بإهانتي!

- لكنها تبدو فتاة طيبة فلا تحطم حياتها.

لم تفهم لين لماذا يستغرب اولاف تصرف رادولف معها. أليس من عادة الرجل ارتكاب مثل هذه الافعال؟ ام ان اولاف لا يعرف حقيقة صديقه الشريرة خصوصاً وانه لا يعلم بالحادثة الاولى التي كادت الفتاة فيها ان تقع ضحية اعتداء رادولف لولا تدخل صديقته الغجرية في اللحظة الحاسمة؟ ولو كانت تلك الغجرية زوجة

رادولف لعارضه اولاف في اختطافها بشدة اكثر.

تكلم الغجري الشاب بكل تصميم وجدية:

- اسمع يا صديقي، انا انوي ان انال منها التعويض العادل عن فعلتها، فإذا لم تتمكن من تحمل ذلك لن يكون الذنب ذنبي.

ادركت لين من لهجته القاسية ان الرجل ليس مستعداً للعودة عن قراره وانه ينصاع لغرائزه ضارباً عرض الحائط اي اعتبار آخر.

حاول اولاف من جديد ان يثنيه عن عزمه:

- الفتاة تقول انك اختطفتها وهذا صحيح. وأنت تعلم ان الاختطاف جريمة خطيرة يعاقب عليها القانون بصرامة. عليك ان تفكر بوضعك الخاص يا صديقي قبل ان يفوت الاوان، فنحن بغنى عن المشاكل. ظننت ان الايام كانت كفيلة بتهدئة طباعك الحادة بعض الشيء وبتعليمك كيف تكبح جماح اعصابك، وها إني الآن أجد نفسي على خطأ.

تساءلت لين عن الوضع الخاص الذي تكلم عنه الغجري الكهل. أيعني به ان رادولف هو «ملك» الغجر في كل ايرلندا؟ تفسير معقول قد يوضح كلمة الوضع الخاص والاحترام الذي أظهره هؤلاء القوم للرجل، كما يوضح كذلك عدم استقراره في مخيم واحد وتنقّله الدائم من منطقة الى اخرى.

- أتعتقد اني خائف من العقاب يا اولاف؟ الا تعلم اني لا احسب حساب النتائج عندما اقرر الاقدام على خطوة أنا مقتنع بها؟

اطلق رادولف ضحكة قوية قبل ان يكمل:

- لا تخف يا عزيزي سأتدبر الأمر بمهارة!

فهمت الفتاة من كلماته انه معتاد على هذه الاعمال وان خبرته فيها طويلة بحيث لا يخاف الوقوع في أيدي العدالة. لكن اولاف ما يزال قلقاً. ولم يشاطر صديقه مرحه اذ قال بكل جدية:

- أحس بنفسي مسؤولاً لاني كنت أعلم منذ البدء...

قاطعه رادولف مطيباً خاطره:

- لكنك تكلمت في النهاية. عزيزي اولاف، انت متقدم في السن كفاية لئلا تمضي سنواتك الاخيرة بالندم ووخز الضمير. اظن اني كنت تصرفت مثلك تماماً لو وجدت نفسي في ذات الموقف.

- يسرني سماعك تقول هذا. مع اني عندما اراك ترتكب افعالاً غير قانونية، كاختطاف هذه الفتاة المسكينة، ألوم نفسي لاني لم اتكلم قبل ذلك بكثير.

- لا، كان عليك انتظار موتها لتفعل.

نسيت لين ورطتها وهي تسمع هذا الكلام الغامض. هناك مأساة ما حدثت هنا، كما يظهر ان اولاف لو تكلم وباح بالسر الغامض لما كان رادولف اليوم شريراً الى هذه الدرجة. ولكن ما هو السر الذي كتمه الغجري الكهل؟

- اشكر تفهّمك يا عزيزي.

صمت الكهل قليلا ثم تابع محاولا اقناع صديقه الشاب:

- ولكني آسف للفتاة المسكينة.

- لا داع للأسف لأنها أوصلت نفسها الى هنا بحماقتها!

غريب كيف يتحول صوت رادولف عندما يغضب. كانت نبرته رقيقة قبل ان يتحدث عنها فصارت قاسية الى درجة الفظاظة.

- هي انكليزية أليس كذلك؟

- تماماً.

- إذن لا بد ان يكون أحد ما قد بدأ البحث عنها. عائلتها ربما...

- غير ممكن يا اولاف فالفتاة وحيدة هنا.

- من قال ذلك؟

- هي صرحت لي بأنها تمضي أجازتها في ايرلندا وتجوب البلاد وحيدة بسيارتها.

- اسمع يا رادولف، تبريراتك لا تقنعني بصحة عملك.

- لن اتراجع عن خطوتي ابداً!

- ولكنك ستوقع نفسك في مشكلة كبيرة.

- لا تقلق يا صديقي. لن يبحث عنها أحد اذ يفرض انها تركت الفندق الذي كانت تنزل فيه واتجهت الى منطقة جديدة.

- ولكن اين السيارة التي تكلمت عنها؟

أخبره رادولف بكل التفاصيل وبأن السيارة مفتوحة والمفاتيح ما تزال بداخلها. عندها فقط ادركت لين انها صرحت للرجل بحماقة لا مثيل لها بكل ما يسهل له اتمام جريمته.

ابتعد الرجلان قليلا فلم تعد الفتاة تتمكن من سماع بقية الحديث ولكنها استطاعت التقاط جوهره.

- عليك احضار سيارتها بأسرع ما يمكن يا اولاف كي لا تبدأ الشكوك تحوم حول تركها في الموقف.

- لا ارتاح لعملك يا صديقي. هذا ليس من طبيعتك بل من طبيعة...

تلاشت الاصوات اذ ابتعدا كثيراً عن النافذة. ففشلت لين مرة جديدة في اكتشاف اللغز الذي بدأت تشعر بوجوده في حياة هذا الغجرى الذي طلع من العدم ليقلب حياتها.

ماذا سيفعل الآن بالسيارة؟ لكم كانت غبية عندما اطلعته على كل شيء. لو لم تفعل لكان أحدهم لاحظ بقاءها الطويل في الموقف ولأبلغ الشرطة بالأمر. ولكن لا يمكن ان تضيع آثار لين لمدة طويلة. فمن المحتم ان يفتقدها زملاؤها عندما تنتهي اجازتها وتقتضي عودتها الى العمل. كما سيفتقدها مالك البناية عند استحقاق قسط ايجار شقتها الشهري. سيأتي من ينقذها من قبضة الغجري عاجلاً ام اجلاً. لكن المقلق ان هذا الرجل يملك ثقة كبيرة بنفسه تجعلها تخاف من ان يتدبر الأمر بشكل محكم ينجو فيه من اي عقاب على جريمته النكراء.

أين هو الآن؟ غيابه يزيد من قلقها وتوترها. كم يمارس هذا الرجل لعبة حرق الاعصاب ببراعة! آه لو يستطيع اولاف اقناعه

بالافراج عنها! أمنية بدّدتها أصوات ثرثرة في الخارج باللغة الغجرية شعرت لين من دون ان تفهم شيئا انها موجهة اليها. بدأ قلبها يخفق بقوة وأحست بأن جسمها مشلول وعقلها معطل. صار كل كيانها منصباً على اللحظات الزاحفة ببطء، تحمل في كل ثانية جبالاً من القلق والخوف. متى سيأتي رادولف؟ وماذا سيفعل عندها؟ كم كانت متهورة عندما ضربته بالسوط! لكن الطريقة الهادئة التي حياها بها في الغابة وكأنه يراها للمرة الاولى أججت في صدرها نار الغضب. كيف استطاع مواجهتها بكل هذا الهدوء بعد الحادثة الاولى قرب المخيم؟ استحق الضرب وان تكن النتيجة وجودها هنا سجينة رجل شرير ينوي تحطيمها، وبين أناس لم يسمعوا بالشفقة ووخز الضمير. من سينقذها من المصير الذي أعده ويعدّه لها خاطفها؟

جن جنون لين بعد تحليلها للموقف. فحاولت فتح الباب، ثم اخذت تطرق بيديها عليه وهي تعلم ان عملها لن يجدي نفعاً. لكن اليأس دفعها الى هذه المحاولة الفاشلة. انهارت وسقطت على الارض تجهش بالبكاء في حين تعالت في الخارج قهقهات شريرة من الغجر المتلذذين بعذابها ومعاناتها. في اي حال هي ليست ضحيتهم الاولى ولن تكون الاخير.

سمعت لين اسم رادولف يلفظ مرات عدة واستطاعت التعرف الى صوت اولاف المميز بوقاره. وعندما انطلقت ضحكة جديدة صمت اذنيها كأن قنبلة انفجرت قربها. لم تستوعب كيف يتمتع انسان بتألم آخر. أمر لا يقبله منطق الفتاة ولكنه أمر طبيعي بالنسبة الى هؤلاء.

اخذت لين تدور في الغرفة، تقيسها طولاً وعرضاً. تجلس على كنبة، تنهض لترتمي على السرير... اخيرا أزاحت الستائر عن النافذة ورأت اربع عربات قديمة مطلية حديثاً. لطالما أعجبت بالعربات القديمة بسبب ايحاءاتها الرومنطيقية. تفكر الآن بالاعجاب والرومنطيقية؟ اذا خرجت من هنا حية لن تنظر إلى عربة في

حياتها... تسمّرت السجينة في مكانها اذ سمعت وقع خطوات قريبة واستقرت عيناها على مقبض الباب تنتظر فتحه واجمة. أدير المفتاح في القفل ودخل رادولف. رماها بنظرة عدم اكتراث وأقفل الباب وراءه. ثم اتجه الى السرير وتفحصه جيداً قبل ان يقول بصوت خافت:

- حسناً يا حلوتي، وصلنا الآن الى الفصل الختامي من المسرحية.

ابتسم هازئاً وتحسس الجرح في خده. ارتجفت لين عندما رأت عمق الجرح الذي سببته للرجل لأنها لم تؤذ احداً في حياتها من قبل، لكن وقاحة الغجري دفعتها الى استعمال العنف معه.

اصبحت لهجة رادولف آمرة عندما تكلم من جديد:

- تعالي الى هنا لتنفذي العقاب على نعتك اياي بحثالة المجتمع.

وصاح فيها بعنف:

- تعالي الى هنا! زاد جرحه احمراراً بسبب الغضب ولم تجد لين بداً من الاذعان لمشيئته خوفاً من بطشه. أمسك بمعصمها وشدها اليه بقوة بالغة حتى كاد بعناقه يحطم عظامها. لم تستسلم الفتاة له بل اخذت تقاوم بكل ما اوتيت من قوة فيما هو يقهقه عالياً ساخراً من مقاومتها. صرخت لين من الألم عندما أطبق بيده الفولاذية على شعرها وأرغمها على رفع وجهها الى عينيه الأسرتين. وبوحشية فائقة أخذ رادولف يطبع شفتيه على جبينها ووجنتيها وعنقها فيما الدموع تنهمر من عينيها سيولاً. حتى انها عندما نظرت اليه رأت الصورة مشوشة كأنها امام شبح لا امام انسان من لحم ودم. ومما زادها حيرة وتعجباً اخراجه منديلا من جيبه ليمسح دموعها بكل رقة وحنان!

لقد اصبحت الآن اكثر حرارة وتملّكاً، ولكن أقل اهانة ووحشية. نظرت الى الرجل بارتباك. وجه جامد كأنه محفور في الصخر، نظرات باردة لا تنم عن أي احساس. ماذا يدور في خلده؟ ماذا وراء هذه الملامح الهادئة؟

ـ أعندك شيء تقولينه قبل ان انفّذ انتقامي كاملاً؟ كنت انوي ان استعمل السلاح نفسه.

اشار رادولف الى السوط المرمي على الارض وتابع:

ـ لكن آثار الجروح تفسد جمال وجهك. لذلك طرحت فكرة جلدك جانباً واستعضت عنها بطريقة انتقامية ممتعة مفيدة.

رأت لين في ابتسامته سخرية لا متناهية وفي عينيه علامة الانتصار. وفي الوقت عينه ادركت انها اخطأت عندما أهانته وانه لن يغفر لها ذلك. لقد نعتت الغجر بحثالة المجتمع ورعاع القوم ورادولف مصمم على جعلها تدفع ثمن ذلك غالياً.

كرر الغجري سؤاله:

ـ أعندك شيء تقولينه قبل ان انفذ انتقامي كاملاً؟

وجدت الفتاة صعوبة في نطق الكلمات:

ـ أتريدني ان استجدي منك الرحمة؟

ـ مع الأسف الشديد لن يجدي استجداؤك نفعاً لأني لست ذلك الشخص المتسامح.

ابتعدت لين الى الوراء ونظرت من النافذة فرأت اولاف يبتعد على الحصان ومعه يتلاشى أملها في المساعدة... قالت لمختطفها بصوت متهدج تخنقه الدموع:

ـ لن تنجو بفعلتك من دون عقاب. عندما أخرج من هنا سأذهب فوراً الى الشرطة.

علّق رادولف وهو ينظر الى وجهه المجروح في المرآة:

ـ الحديث عن الخروج سابق لأوانه يا عزيزتي فأنت جميلة جداً ولن أملّ منك بسرعة.

تبسّم هازئاً واضاف:

ـ ربما لن تخرجي من هنا ابداً.

لم تتمكن لين من استيعاب هذه الفكرة وتصورت نفسها سجينة هذه العربة بقية حياتها... وفجأة طرأت لها فكرة أشد رعباً.

ـ ماذا... ماذا تنوي ان تفعل بي؟

رفع حاجبيه وأجاب:

ـ لا تتظاهري بالبراءة وتدعي انك لا تعلمين ماذا سأفعل بك!

علت الحمرة وجه الفتاة خجلاً فأوضحت:

ـ أعني ماذا ستفعل بي بعد...

توقفت ووضعت يدها على قلبها الخافق بشدة ثم اضافت بهلع:

ـ هل تنوي ان تقتلني؟

هز رادولف رأسه ضاحكاً:

ـ أقتلك؟ خسارة اهدار هذا الجمال. لا، لن أقتلك لأني لا اريدك جثة هامدة بل امرأة تضجّ بالحياة.

أنساها الغضب خوفها فانفجرت:

ـ اسمع يا حضرة الغجري. قد يكون جسمي تحت رحمتك ولكن لا تتوقع مني أي تجاوب لأنك لا تستطيع امتلاك روحي!

طوقها بذراعيه فحاولت المقاومة ولكن دون جدوى لأن قواها قد خارت.

ـ سنرى يا عزيزتي ان كنت ستتجاوبين أم لا، فلندع ذلك للوقت.

اخذ يداعب شعرها وعنقها فانتفضت وأنشبت اظافرها في وجهه مسببه له نزفاً جديدا من الجرح.

ولكنها ما لبثت ان ندمت على ذلك لأن الغضب أعماه فكاد يخنقها وهي مستسلمة ليديه الجائعتين تعاقبانها على طريقته...

ـ سأعلمك الآن كيف يعامل رعاع القوم نساءه ايتها السيدة الانكليزية المتحضرة.

توسلت اليه وهي تحاول لملمة قميصها الممزق:

ـ أرجوك ارحمني! أعتذر.

أكمل رادولف على ما تبقّى من قميصها ووقف يحدق فيها بعيني شقي شرير.

- الاعتذار لا ينفع يا حلوتي. أما الدرس الذي سألقّنك اياه الآن فنافع جداً!

حملها بين يديه كدميه ورمى بها على السرير. ثم وقف يلتهم بنظراته كل ذرة من جسمها. حاولت لين ان ترى في عينيه من الرأفة فلم تجد الا الرغبة في الانتقام. وعلى الرغم من خطورة الموقف ذهلت لأنها وجدت في الرجل وسامة غريبة. وسامة بدائية وجاذبية وحشية كتلك الموجودة في انسان الغابات الذي بقي بريئاً من تلوّث المجتمع الانساني.

بدون اي شك كان رادولف المنتصر في هذه المعركة، المنتقم الساخط الذي سيتغلب على أية محاولة تبديها للمقاومة. أخذ يضحك وهو ينظر الى البقية الباقية من ملابسها قبل ان يكمل عليها، فحاولت لين ستر نفسها بغطاء السرير.

غشاها الخزي والعار وتمنت لو ان يد الموت تمتد لتنقذها من مرارة هذه اللحظات المشينة.

- ما رأيك يا حلوتي بهذا التعذيب البطيء؟ اعتقد انك لم تتوقعي ذلك ابداً عندما أطبقت بالسوط على وجهي، اليس كذلك؟

وفجأة اجتاح وجهه حقد محا أي أثر للمرح جاعلاً الرجل يقطر شراً والفتاة ترتعد خوفاً وتتساءل كيف يمكن لانسان طيب مثل اولاف ان يعتبر هذا صديقاً...

- نفد صبري ولن أتمكن من اطالة عذابك اكثر.

نزع الغطاء من يدها فتمتمت:

- اكرهك، اكرهك... سأقتلك يوماً.

- ستكرهينني اكثر يا حلوتي. ستكرهين الغجري المتشرد وسوف تستجدين منه الرحمة!

استشفت لين من صوته مرارة الى جانب الغضب كأن الرجل يغار كثيراً على سمعة بني قومه ولا يتحمل أية اهانة توجّه

اليهم.

- آن الاوان يا حلوتي ليبدأ الانتقام الممتع.

اغمضت لين عينيها وبكت بمرارة مستسلمة لقدرها المحتوم.

www.elromancia.com

٣ ـ اللعب بالنار

تزايد الضجيج في الخارج وطرق أحدهم الباب فأفاقت لين من ذهولها ولاح لها أمل جديد.

اتجه رادولف نحو الباب فسألته:

ـ ما الأمر؟

وقبل ان يفتح الباب سمع الرجال في الخارج يردّدون أغنية غجرية فانفجر ضاحكاً. تقدمت امرأتان من مدخل العربة فغرقت لين في أغطية السرير محاولة اخفاء نفسها والخجل يغمرها. تبادل رادولف بعض الكلمات مع المرأتين ورمى أحد المتجمعين الى لين فستاناً زاهياً. فوقف رادولف يفكر وينظر الى الفستان بينما كانت الفتاة تحاول جاهدة حل اللغز الجديد. ماذا يخطط لها هؤلاء القوم؟

ألا يكفيها شر خاطفها وحده لتتحمل الآن شرور الآخرين؟

اخيراً نطق رادولف:

ـ ولم لا؟

سألته الفتاة عندها بكل إلحاح والخوف يعصر قلبها ويمحو سراب الأمل الذي لمحته بعد ان سمعت الطرق على الباب:

ـ ما الأمر؟

وأردفت بنبرة شبه هستيرية:

ـ قل لي ما الامر!

ـ القوم يطالبونني بالزواج. تصوري أن فرداً من حثالة المجتمع سيتزوج فتاة من نخبة المجتمع! وجدت انهم على حق فقد آن الاوان لأتخذ لنفسي امرأة.

ثم اضاف بعد ان نظر الى الفستان:

ـ احضروا لك فستان العرس، ارتديه!

امتقع وجه لين وصاحت من الغيظ:

ـ لا! لا يمكن لأحد ان يجبرني على الزواج.

امسكت بالفستان ورمته في وجه الواقفين على الباب ثم صرخت:

ـ ارحلوا عني وخذوا هذه القذارة معكم!

انحنى رادولف ليلتقط الفستان وباشارة واحدة من يده أبعد قومه المتحلّقين ونوايا الشر في أعينهم بعد ان اهانتهم العروس العتيدة. ثم اغلق الباب بعنف واقترب من السرير مهدداً متوعداً.

ـ ارتدي الفستان.

مررت لين لسانها على شفتيها الجافتين وشرعت في محاولة تضليل للتهرب من شرك الزواج.

ـ افترض انني متزوجة.

نظر الغجري الى يدها اليسرى ليرى ما اذا كان في اصبعها خاتم زواج.

ـ لا اعتقد انك متزوجة وعلى كل حال هذا لا يغيّر في الأمر شيئاً.

ارتدي الفستان الا اذا كنت تريدين ان اقوم بالعملية بنفسي.

اخذ دماغ الفتاة يعمل بسرعة مفتشاً عن الحل الأفضل. فوجدت ان في الاذعان لمشيئته والخروج من هذه الغرفة فرصة للحصول على مساعدة أحد والخلاص من قبضة خاطفها. فقالت له وعلى جبينها علامة الرضوخ:

- حسناً، لا خيار لي إلاّ بقبول الزواج. وفي اي حال يظل الزواج أفضل من...

أكمل الغجري الجملة ضاحكاً:

- افضل من العلاقة غير الشرعية؟

- هلا تفضلت بالخروج لأغير ملابسي؟

- ولماذا تخجلين من زوجك؟

- أنت لم تصبح زوجي. ولن تصبح كذلك إلا في الشكل لا في الجوهر!

كان عقلها ما يزال يفتش عن وسيلة للهروب. كم هي المسافة بين المخيم والطريق العام؟ وهل يسمعها أحد اذا صرخت مستغيثة؟

نفد صبر رادولف من الانتظار فقال:

- لقد رأيت كل شيء تقريباً فلا داع للخجل! انهضي من السرير وارتدي ثوب العرس.

نهض الرجل من كرسيه لأن الفتاة لم تنفذ أمره فقالت له باذعان وخوف:

- ارجوك عد الى كرسيك فسأنفذ مشيئتك.

جلس الغجري يتمتع بمشاهدتها تغير ملابسها في حين انها وجدت صعوبة بالغة في التحرك امام هذا الرجل الخبيث، الوقح، الذي سبب لها إذلالاً ما بعده اذلال. وعلى الرغم من صعوبة الموقف لمحت الفتاة في عيني خاطفها بريقاً مختلفاً عن الشر والسوء، رأت ما يشبه الاعجاب!

كان الفستان طويلا، ولحسن الحظ، نظيفاً. وقفت لين امام

رادولف الذي امسك بيدها وقال:

- ما رأيك بقبلة سريعة؟

ثم انتبه الى أمر تافه بالنسبة اليه فسألها:

- على فكرة ما اسمك؟

وجدت لين في غرابة الموقف ما يضحك. العريس يسأل عن اسم عروسه قبل دقائق من الزواج!

- اسمي... لين.

- اسم جميل. لين ماذا؟

- لين سلدون.

- تعرفين اسمي على ما اعتقد.

- لست بحاجة الى ان أعرفه لأني لن أناديك على الاطلاق.

- اوّل أمر على المرأة الغجرية ان تعلمه هو الطاعة العمياء لزوجها يا حلوتي. ستفهمين ذلك تدريجياً، أما الآن فهيا لأن القوم بانتظارنا.

في الخارج، نظرت لين الى الطريق فتنفست الصعداء لأنه ليس بعيداً جداً عن المخيم. لربما تمكنت من الافلات او لفت انتباه أحد يمر بسيارته فيأتي لانقاذها. لكن رادولف وقومه كانوا يعلمون نواياها، لذلك وجدتهم يحيطون بها بشكل لا يدع مجالاً لأيه محاولة للفرار.

بدأ الرجل المختص باتمام المراسم الشكلية الخاصة بالزواج عند الغجر، والتي لم تفهم منها لين شيئاً. وقفت تراقب بصمت المشاهد المبهمة التي تمر امامها كأنها مجرد متفرج لا علاقة له بما يجري. هل زواجها هذا شرعي؟ ولكن أمر الزواج لم يعد مهماً ازاء تصميمها النهائي على الفرار مهما كانت الصعاب ومهما كلفها ذلك من تضحيات. زادها تصميمها شجاعة وايماناً بالخلاص لأن الارادة الحديدية، متى توافرت، قادرة على زحزحة الجبال.

صحت فجأة من شرودها على صوت زوجها الغجري رادولف:

- تعالي يا زوجتي، سيصطحبنا المحتفلون الآن الى عشنا

الزوجي.

أخذ الرجل يضحك بينما كانت لين تفور غضباً. وضعت يديها خلف ظهرها عندما حاول زوجها وضع يدها في يده مما أثار ضحك الجميع. لكن الغريب في الأمر ان خوفها تحول الى غضب بارد وتصميم على الانتقام.

امسك رادولف بيدها وصفعها عليها بنعومة كأنه يمازحها. ثم رافقها الجميع الى العربة وكان البعض يرقصون ويغنون احتفالاً «بالمناسبة السعيدة» ويتخلى الزعيم عن العزوبية.

اخيراً وصلت لين الى نهاية المشوار فأغلق الباب وراءها ووجدت نفسها مع زوج متشرد... بعد اسبوعين فقط من وصولها الى هذه البلاد لتمضي اجازتها...

افاقت لين على أشعة الشمس المتسللة من بين الستائر تداعب عينيها. تدافعت الصور في مخيلتها، صور الاهانة والذل. تمنّت لو انها لم تقاوم بشراسة وتنعت زوجها بالغجري القذر. فلربما كان عاملها بشكل أقل شراسة مما فعل. لقد سببت بتصرفها الأخرق غضبه فكان عليها بالتالي تحمّل النتائج.

كان رادولف مصمماً على نيلها، فلماذا حاولت ايقافه وهي تعلم ان ما قامت به عقيم لا يفيد مع هذا الشخص؟ لكن عدم استسلامها أعطاها دفقاً من الثقة بالنفس سوف يجعلها تصمد امام ما ينتظرها من صعوبات ومشاق.

جلست تنظر الى الرجل النائم الى جانبها. عيناه المغمضتان كعيني طفل بريء ينام في هناء بين احضان امه. يا لتناقض وحشيته مع هذه القسمات الهادئة! رغبت لين بصفعه لكونه يتمكن من النوم هكذا بعد كل ما سبب لها البارحة من آلام وإذلال. تحرك الرجل اخيراً وفتح عينيه يحدّق حوله وكأنه لا يعرف أين هو ومع من.

- صباح الخير يا زوجتي العزيزة. ارجو ان تكوني قد نمت جيداً.

لم تنتظر لين طويلا حتى تطرق الموضوع فبادرته بالسؤال:

- قل لي ماذا سنفعل الآن. هل ستبقيني لأعيش مع هؤلاء القوم؟

- وأين تريدين العيش؟ الزوجات يسكن عادة مع ازواجهن، ام ان عاداتكم في انكلترا تختلف؟

- لكنني لن أجد شيئاً افعله هنا.

- في الوقت الحاضر ستهتمين بزوجك.

- ماذا تعني بالوقت الحاضر؟

- أعني حتى نبدأ بانجاب الاولاد والغجر ينجبونهم بكثرة كما لاحظت.

امتقع وجه لين وهي تحلل الفكرة الجديدة التي إن تحققت ستعقد أمر فرارها.

- اتمنى ان لا انجب أي ولد منك!

تكلم رادولف بنبرة فاجأت زوجته لما غلفها من ألم وحسرة:

- ستنجبين أولاداً لأن هذه هي رغبتي ولأني ككل الرجال أرغب بوجود وريث لي.

- وريث؟ وماذا تملك لتعطي وريثك؟

- دعيني أقدم لك نصيحة غالية يا لين. لا تغضبيني بعد الآن والا ندمت على ذلك حيث لا ينفع الندم. واحذرك انك لم تري مني الاسوأ بعد!

تمتمت الزوجة البائسة:

- كان الله في عوني...

رمقها الغجري بنظرة ثاقبة وقال:

- تماماً. وخلافاً لما تعتقدين، انا املك اشياء كثيرة أقدمها لوريثي.

- طبعاً فأنت تملك هذه العربة القذرة، وسمعتك السيئة...

لم تتمكن لين من المتابعة اذ أخرسها الالم عندما اطبق رادولف بقبضته الحديدية على ذراعها.

- لا تعتبري مسألة فقري مسلماً بها ولا تحاولي تخمين ممتلكاتي.

زاد من شدة قبضته واضاف:

- يبدو ان علي تهذيبك يا امرأة...

تحررت لين من قبضته وحاولت النهوض من السرير. لكن رادولف كان أسرع منها فشدّها اليه بعنف واستسلمت بعد مقاومة يائسة لاصراره...

بعد حوالي الساعة جلسا الى الطاولة لتناول طعام الفطور. لم يكن رادولف مهتماً بالأكل بقدر ما صب اهتمامه على مراقبة زوجته متلذذاً بمعاناتها.

سألها وهو يتحسس الجرح في خده.

- هل ندمت على فعلتك أم بعد؟

- استحقيت الضرب وأنت تعلم ذلك.

- استحقيته؟

بدا رادولف مذهولا فتساءلت لين ما اذا كان قد نسي انه هاجمها عندما تعطلت سيارتها قرب المخيم.

- أنسيت عندما حاول الغجرى الحقير...

لم يدعها رادولف تكمل اذ قلب المائدة وهب من كرسيه يعتريه الغضب. فتراجعت لين خائفة حتى التصقت بحائط العربة وهي تلوم لسانها الطويل الذي أوقعها في هذه الورطة.

تقدم منها الرجل مزمجراً:

- ستعتذرين على هذه الاهانة! وستعتذرين بكل تذلل وضعة.

حدقت لين مشدوهة في هذا الوجه الشرير وهي لا تكاد تصدق ان كل هذا الحقد يمكن ان يتجمع في انسان واحد. لما وجدها ساكنة جذبها الغجري اليه واخذ يهزها بقوة كدمية صغيرة حتى كادت تصاب بالاغماء. اخيراً، قال وهو يعض على اسنانه:

- أنا انتظر الاعتذار!

لم تدع لين الفرصة تفلت من يدها فأفلحت في تمتمة:

- اعتذر على ما قلته...

توقفت فجأة تخنق صوتها الدموع المنهمرة من عينيها بغزارة. الظلم لم يكن جسمياً فقط بل طال الناحية المعنوية كذلك. الرجل كان يستحق الضرب والا لما فعلت لين ذلك، وعلى الرغم من صواب موقفها أرغمها على الاعتذار صاغرة على اشياء قالتها عن اقتناع تام.

رفعت عينيها الى وجهه القاتم، الى الملامح النبيلة المتعالية التي تكسبه تفوقا واضحا على خصومه. من يراه يظنه احد النبلاء ولا يمكن ان يشك بأنه غجري شرير. غجري ذو مظهر ارستقراطي متعجرف... أمر محير فعلا.

- اظهرت تعقلا في الاعتذار يا حلوتي، لأن أية كلمة مهينة كانت ستكلفك شهر نقاهة!

حرر كتفيها ونظر الى الطاولة المقلوبة والى الاطعمة والصحون المتناثرة على الارض. اقشعر بدن لين تقززاً من القذارة الطاغية في هذه العربة. أمرها رادولف بالتقاط كل ما تناثر على الارض فلم تجد بدّاً من الاذعان له فيما هو جالس على الاريكة يراقب عملها، وبعد ان انتهت قال:

- احضري لي طعاما جديدا فالجوع نتيجة حتمية للارهاق.

رافقت الدموع لين في كل افعالها. ماذا فعلت كي تستحق هذا المصير الأليم؟ أية خطيئة ارتكبت لتنال هذا العقاب الصارم؟ اي ذنب اقترفت لتلقى هذه المذلة؟

بعد قليل أبلغها رادولف انه سيغيب طوال النهار.

- الى اين ستذهب؟

- هذا ليس من شأنك. كما أحب ان اذكرك بألا تحاولي الفرار لأن العربة ستكون مراقبة من جميع الجهات. ونظر حوله:

- اريد ان أجد كل شيء نظيفاً ومرتبا عندما اعود. الا اذا حببت ان استعمل معك العنف!

كانت لين تعلم انه لا يمزح وانه على استعداد لضربها فلم تجب

على تهديداته.

لم يكن عملها بسيطا البتة فالعربة قذرة فعلا وتحتاج الى ايام لتصبح صالحة للسكن. بدأت اولاً بتنظيف الاثاث الذي كانت الخدوش عليه عميقة كالخنادق! مع ذلك بدا أحسن بقليل عندما غسلته ولمعته بقطعة قماش وجدتها في الخزانة. المرحلة الثانية كانت تنظيف ارض العربة والاوساخ المتجمعة، منذ سنوات على ما يبدو، شكلت في بعض المواضع تلالاً صغيرة اضطرت لين لاستعمال السكين لنزعها.

ألا يكفيها انها تعيش مع زوج وضيع ليزيد الطين بلة وجودها في هذا المكان القذر؟ حتى رادولف أظهر بعض القرف من القذارة وكأنه ليس معتاداً على هذه المشاهد!

جلست لين على الأريكة ترتاح قليلا وتفكر كثيرا. حاولت جمع قطع الأحجية، فزوجها بدا غريبا في بعض أقواله وتصرفاته. قبل كل شيء في صوته نبرة رقيقة لا يملكها الا دمثو الاخلاق والمهذبون. لا يصبح قاسياً الا في ساعات الغضب و «الغجرية»... حاولت ولم تستطع تذكر نبرته في لقائهما الاول. فهو لم يسألها الا عن السيارة وبعد ذلك انصرف الى الحركة لا الى الكلام... ثم هناك الحصان الأصيل الذي كان يمتطيه عند لقائهما الثاني. من أين يمكن لغجري فقير الحصول على مثل هذا الحيوان الرائع؟ والأكثر غرابة تمكنه من الوصول الى هذه المنطقة بسرعة بينما أمضت لين ساعات لبلوغها بالسيارة! هذا يعني انه استعمل وسيلة أسرع من الحصان بكثير.

اطلقت زفرة الفشل وقامت تكمل عملها لعلها بانشغالها تنسى عذابها قليلاً.

وجدت أن السجادات بحاجة الى نفض في الخارج. ولكنها كانت تتهرب من التحدث الى أي من الغجر ومع ذلك لا يعقل ان تفرش السجادات الوسخة على الارض النظيفة. قررت اخيرا فتح النافذة وما ان فعلت حتى ظهر امامها «حارس» شاب لا يتجاوز العشرين

من عمره.

قالت له على أمل ان يكون يفهم الانجليزية:

ـ اريد نفض هذه السجادات.

ـ سأفعل ذلك بنفسي.

ابتسم الشاب وهو يتناول منها السجادات فظهرت أسنان لم تر أنصع بياضاً منها في حياتها.

ـ شكراً لك.

لم تنتبه المرأة الشابة لنظرات الغجري الهائمة بوجهها الجميل. ولم يخطر لها بالطبع انه لم يكف عن التفكير بها منذ ان أحضرها رادولف الى المخيم.

سألته عندما أعاد السجادة الاولى:

ـ هل كلفك رادولف بمراقبة العربة خلال غيابه؟

اومأ بالايجاب ثم تمتم بصوت لطيف:

ـ آسف لقيامي بهذه المهمة.

وجدت لين في موقفه فرصة ذهبية فاختارت كلماتها بدقة:

ـ لا عليك فأنت مضطر لاطاعة اوامره، اليس كذلك؟

ـ الجميع يطيعون أوامر رادولف.

ـ هل هو ملك الغجر؟

ـ لا تطرحي علي اسئلة لا يمكنني الاجابة عليها يا سيدتي.

فيما كان الشاب ينهي نفض السجادتين الباقيتين رأت لين عينين تراقبان المشهد من نافذة عربة اخرى، حارس آخر. ناولها الشاب السجادتين وقال:

ـ علي الذهاب الآن، ارجوك اقفلي النافذة.

ـ لا تذهب قبل ان اعرف اسمك على الأقل.

نظر الشاب حوله وتكلم بسرعة:

ـ ادعى كونيل. عليّ الذهاب الآن والاّ عرف رادولف بأني تحدثت اليك.

وجدت لين في هذا الشاب نقطة ضعف اذا عرفت استغلالها قد تساعدها على الهرب.

بعد قليل اقتربت من النافذة لترى ما اذا كان أحد يراقبها. وعندما لم تجد احداً فتحتها بهدوء فأطل كونيل.

- هلا احضرت لي بعض الماء يا كونيل؟

وضعت المرأة في صوتها كل ما لديها من نعومة ورقة عرفت مفعولها عندما أعاد الشاب الدلو مليئاً بالماء. وناولها اياه بيدين مرتعشتين. لم تستطع لين كتم شعور بالأسف نحو هذا الشاب الوسيم المحروم من كل ما يتوافر لأقرانه من علم وثقافة وثياب نظيفة على الأقل!

- شكرا جزيلاً.

واضافت بعد ان تأكدت من عدم وجود متطفلين.

- ماذا يحل بك اذا تمكنت من الفرار؟

- سأقع في مشكلة كبيرة.

- مع زوجي؟

- نعم فهو قد كلفني بحراسة العربة.

- أيدفع لك شيئاً مقابل ذلك؟

احمر وجه الشاب حرجا من اسئلتها وقال بخجل:

- في الحقيقة انا بحاجة ماسة الى المال. أتريدين ان احضر لك المزيد من الماء؟

- نعم، سأفرغ الدلو وأجلبه.

ناولته لين الدلو وما ان غاب حتى اخذت تفتش في خزانة العربة عن قلم فلم تجد شيئاً.

سألته وهي تتناول الدلو:

- أريد ان اطلب منك شيئاً.

- ما هو؟

- أيمكنك ان تحضر لي قلماً لأكتب رسالة صغيرة؟

- لا...

لم تدعه لين يكمل الكلام فتوسلت:

- انا بحاجة الى المساعدة يا كونيل! أنت تعلم اني سجينة هنا واريد الفرار بأي ثمن!

هز الشاب رأسه وابتعد بسرعة بعد أن أغلق النافذة.

لماذا يخاف الى هذا الحد من رادولف؟ من أين لزوجها كل هذه السطوة على قومه؟ كاد الشاب يلين ويقبل باحضار قلم لكنه غير رأيه فجأة وابتعد. ربما غره المال الذي يدفعه له رادولف...

ظلت لين قرب النافذة تراقب كونيل الجالس على مدخل احدى العربات تحاول ان تلفت انتباهه. لكنه تحاشى النظر اليها فقررت اخيرا الانسحاب كي لا يلاحظها أحد ويخبر زوجها بالأمر.

جلست تفكر في طريقة كفيلة بجذب الشاب الى جانبها. قد يكون المال وسيلة صالحة لذلك. لكنها تركت حقيبة اليد التي تحوي مبلغا محترماً في صندوق السيارة. هل يقبل كونيل بمجرد وعد باعطائه المبلغ بعد فرارها؟ ولكن كيف يصدقها وكيف تصل اليه لتعطيه المال؟ خطة محكوم عليها بالفشل.

تنهدت لين وقالت لنفسها:

- لا فائدة من كل الخطط. سيسجنني هذا الشرير هنا حتى يمل مني ويشعر بحاجة الى التغيير.

كانت واثقة من ان هذا الملل لن يحل قريبا. فعليها ان تتحضر نفسياً لتتحمل الايام الطويلة الآتية. رادولف معجب بها كثيرا وهي لا تنكر انه وسيم جداً وانها تشعر بالرضى يغمرها عندما يعانقها برغم قسوته.

أين ذهب؟ أين يغيب كل هذه الساعات؟ هي لا تتصور زوجها، كغيره من الغجر، يتنقل من باب الى باب عارضاً إصلاح مقلاة او غلاية، فطبعه المتغطرس يمنع عليه ذلك.

مرّت ساعة اخرى ببطء مزعج ولين جالسة في العربة لا تجد شيئاً

تفعله بعد ان انتهت من التنظيف وحضرت العشاء لزوجها. أخذت تقيس العربة عرضا وطولا كأنها لبؤة سجينة في قفص. حتام يمكنها تحمل هذه المعاناة؟ وقفت في وسط العربة وانفجرت باكية. اعصابها المحطمة لن تساعدها على اجتياز الامتحان الصعب. يا ليتها لم تستعمل السوط في تلك اللحظة المشؤومة! بلى، حسناً فعلت لأنه يستحق الضرب، ولأن أي فتاة غيرها كانت فعلت نفس الشيء مع شخص حاول الاعتداء عليها...

لم تعد لين تحتمل الوحدة حتى انها شعرت بالارتياح عندما عاد رادولف في المساء منهوك القوى، لكن الملاحظة التي ابداها فور وصوله أعادت توترها وغضبها.

- يا للنظافة! يبدو انك قررت ان تصبحي مطيعة. قرار حكيم.

نظر رادولف الى وجهها ولاحظ ان عينيها باكيتان ثم قال:

- لا تحزني على حالتك لأنني قد اجعلها اسوأ.

صاحت فيه غير آبهة بالعواقب:

- أسوأ؟ كيف يمكن ان تكون حالتي اسوأ من هذا؟

نظر اليها وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة قبل ان يجيب:

- بامكاني مثلا أن اضربك يومياً.

امتقع وجهها واطبقت قبضتيها غضباً، ثم قالت بصوت شبه هستيري:

- هذا قد يزيل رتابة العيش هنا على الأقل!

ضحك رادولف من كل قلبه فساهم ذلك في جعل وسامته تزيد امام عينيها الحزينتين.

- أتريدين ان اتمم معروفي إذاً؟

- اكرهك. لا بد ان انتقم منك يوماً ايها الـ...

قاطعها الغجري بضحكته فأكملت:

- سأقتلك اذا استطعت!

- انا واثق انك ستسرين كثيرا لو رأيتني ممددا على الارض اسبح في

بحر من الدماء.

. دخل الغجري الى المطبخ ليرى ماذا فعلت زوجته لتغير واقع الحال هناك. هز رأسه راضيا وقال:

- لا بأس، وإن كان بامكانك ان تفعلي أحسن من ذلك بكثير.

ثم اردف بعد أن عاد الى الغرفة الرئيسية:

- اجلسي وأخبريني عن حياتك، عن وظيفتك مثلا.

- كنت اعمل في شركة، وعلى فكرة سيبدأ زملائي بالتحري عني قريباً.

- سأعالج هذا الموضوع بعد قليل يا عزيزتي. اما الآن فاخبريني عن نفسك.

نظرت اليه باستغراب فلماذا يهتم لمعرفة خصوصياتها؟ في اي حال هدأ غضبها وشعرت بالسرور لوجود أحد قريبا تتبادل معه الحديث، وان يكن هذا «الأحد» شخصاً تكرهه حتى الموت.

- أسكن في شقة في لندن.

استفسر الغجري وهو يتفحص اظافره الانيقة التي يحرص جداً على نظافتها:

- تسكنين وحدك؟

كانت لين قد أخبرته ان لا اقارب لها الا ابن عم لم تر له وجهاً منذ ست سنوات.

- نعم أسكن وحدي.

ارادت ان تخترع له اكاذيب لكن طبيعتها الطيبة لا تسمح لها بذلك. وان كان الهدف من الكذب شريفا. اضافة الى ذلك، لا يمكنها ان تمرر شيئا على هذا الغجري ذي العينين الماكرتين والنظرات النافذة القادرة على قراءة افكارها. أخبرته عن اصدقائها الذين لا بد سيقلقون عليها وسيأتون لانقاذها كما قالت. لكن ذلك لم يؤثر في رادولف اطلاقا بل تابع العناية باظافره وكأنه يقوم بمهمة دقيقة

للغاية.

- أنت لست مخطوبة الى احد على ما اعتقد والاّ لما جئت الى هذه البلاد وحدك.

كانت فعلاً حمقاء عندما اطلعته على هذه الاشياء في الغابة. لكن رعبها كان شديداً الى درجة أفقدتها السيطرة على لسانها.

تابع رادولف استجوابه:

- ما كان نوع عملك في الشركة؟

اطلعته لين على التفاصيل وعيناها تراقبان ثيابه. لقد أبدل ما كان يلبسه عندما خرج في الصباح، كما ان شعره يبدو مغسولاً. أين أمضى النهار ومن أين أتى بالثياب؟ لربما كان يملك بيتاً في الغابة حيث التقته او في أي مكان آخر. هل يصح ان تسأله عن مكان وجوده طوال النهار؟ تخلت عن الفكرة بسرعة لأنه لن يطلعها على الامر.

- سنحضر سيارتك الى هنا يا عزيزتي فهي قد تكون مفيدة.

- ايها اللص! لا أشك في انك سرقت الحصان ايضاً!

- حذار من اللعب بالنار! الزوجة الغجرية لا تكلم زوجها بهذه الطريقة لأنها تعتبره دائماً متفوقا عليها.

- اما انا ايها الغجري الساقط فاعتبرك وقومك اناساً منحطين!

هب رادولف من مقعده كلمح البصر وأمسكها بشعرها مسببا لها ألماً فظيعاً. لقد أوقعها لسانها في ورطة جديدة كانت بغنى عنها. ومن حسن الحظ ان طلبه اقتصر على الاعتذار فكان له ما اراد. تمكنت بذلك من التخلص من الضرب لا من العناق العنيف

فلم تجد سبيلا الى حبس دموعها وايقاف ارتعاشها.

اخيرا ابتعد عنها الغجري ووقف في وسط العربة صامتاً. ساد الجو سكوت مطبق أنهاه رادولف بقبلة ناعمة طبعها على جبينها قبل ان يقول بصوت رقيق:

- لين، لماذا تدفعيني الى معاملتك بهذه الطريقة؟

ذهلت المرأة لهذا التبدل العجيب فأخذت تحدق في وجهه دون ان تفهم مراده. بعد ذلك عاد الرجل الى طبيعته نادماً على ما بدر منه من

رقة فأمرها:

- حضري طعام العشاء!

جلس الزوجان الى المائدة يتناولان العشاء بصمت قبل ان يفجر رادولف قنبلته الجديدة.

- ستكتبين الى الشركة لتبلغي زملاءك انك قررت الزواج...

قاطعته لين قائلة:

- أكتب! أتعتقد انه بامكانك ارغامي على الكتابة هكذا بكل بساطة؟

تمالك رادولف نفسه وحذرها:

- حاولي الا تقاطعيني يا امرأة. ستكتبين الرسالة بدون نقاش.

تناول الشوكة وتثبت من نظافتها قبل ان يستعملها ثم اضاف:

- كما ستوجهين رسائل الى جميع اصدقائك لتعلميهم بالامر.

اسكتها باشارة من يده اذ حاولت التعليق.

- لا تحاولي الاعتراض، ستنفذين أوامري بحذافيرها.

- ليس بوسعك ان تجبرني على ذلك!

أدركت لين ان في صوتها ضعفا وترددا لأنها كانت تعلم ان الطاعة هي السبيل الوحيد لتفادي العنف. وان رادولف لا يقبل بأقل من الرضوخ والاستسلام. والدليل على ذلك انه اخرج من جيبه بعض الاوراق وقلماً قال إنه سرقها، فجلست الزوجة تكتب كما أمرها زوجها والغصة في حلقها تكاد تخنقها. سيستغرب زملاؤها واصدقاؤها أمر الزواج لكنهم لن يجدوا سببا لعدم تصديقه وسيتخلون عن البحث عنها. بعد ان انتهت خرج رادولف ليبعث بالرسائل في البريد.

اثناء غيابه دخلت لين الى المطبخ تغسل الصحون ولكنها ما لبثت ان سمعت طرقا خفيفا على النافذة. نظرت لترى من الطارق ففوجئت لما رأت وجه كونيل وركضت لتفتح له.

قال الشاب بصوت لاهث:

ـ احضرت لك القلم يا سيدتي.

ـ لا اعرف كيف اشكرك! عد عندما تستطيع لأسلمك الرسالة.

أقفلت لين النافذة بسرعة وخبأت القلم وهي تأمل أن يكون كونيل مصمماً فعلا على مساعدتها، وتصلي لئلا يكتشف زوجها اللعبة.

غاب رادولف ساعتين قبل ان يعود حاملاً حقيبتيها بعد ان جلب السيارة من الموقف كما وعد.

ـ افتحي الحقيبة الكبيرة.

ـ لماذا؟

ـ لا بد ان لديك قميص نوم جميلاً.

رمقها بنظرته الخبيثة وأضاف باللهجة الحادة التي تكرهها لين:

ـ افتحي الحقيبة!

أطاعت مرغمة وشرع رادولف في غربلة قمصان النوم الى ان وقع اختياره على قميص أحمر شفاف.

ـ هذا ما سترتدينه الليلة.

ناولها القميص لكنها رمته في وجهه فقال ساخراً:

ـ سأعتبر عملك دعوة لألبسك إياه بنفسي.

ضحك الغجري طويلا وهو يتفرج على زوجته تحمر خجلاً. لكن لين لم تجد هذه المرة في نظراته ما يخيف او ينفر بل تنامى في داخلها شعور مبهم تجاه هذا الرجل القاسي المتلذذ بعذابها.

ـ أعد القميص فأنا لن ارتديه مهما فعلت.

ـ لا يا زوجتي العزيزة، ستنفذين رغبتي صاغرة.

اقترب رادولف منها فشعرت بحرارة عواطفه وحاولت دون جدوى الافلات من رغباته.

٤ ـ مع ملك الغجر

في اليوم التالي خرج رادولف باكراً ليجلب لزوجته بعض الماء كي تغسل شعرها. عندما رجع قال لها بنبرته المتعالية:

ـ هيّا اغسلي شعرك فالماء وفير.

ثارت ونفسها تجيش بالغضب:

ـ لا تكلمني بهذه الطريقة وكأني عبدة!

ـ وجدت الكلمة الصحيحة. أنت عبدتي.

ـ لا تعتبر نفسك سيدي! من تكون في أي حال؟ ربما كنت ملك الغجر لتعامل الناس بهذه الطريقة؟

أجاب ضاحكاً:

ـ حسناً أنا ملك الغجر!

www.elromancia.com

يا له من مخلوق سادي لا يترك فرصة للهزء منها.

- كلامك يعني بوضوح اني مخطئة.

- ما الذي يجعلك تظنين اني ملك الغجر؟

ترددت لين في الاجابة لأنها لا تريد الاعتراف له بأنه يملك سطوة وجلالاً.

- انت مختلف بعض الشيء عن باقي قومك.

- مختلف؟

عاد الى ذاكرة لين، عندما تكلم رادولف، المشهد الذي جرحت فيه شعوره بكلمة قالتها. لا شك انه يحس بالشيء نفسه الآن، ولكن لماذا؟ أيخجل من كونه غجرياً؟

- نعم مختلف.

تحاشت لين جرح الرجل مع أنها تكرهه ولكنه يبقى انساناً كغيره يجب احترام مشاعره.

- كيف يمكنك ان تقارني بيني وبين قومي وانت لم تتعرفي الى أحد منهم جيداً؟

- خلال اليومين الماضيين راقبتهم من النافذة وسمعتهم يتكلمون.

- أتعتبرين اليومين كافيين؟

- أشعر كأني أمضيت سنتين هنا لا يومين!

ابتسم رادولف فتساءلت لين اذا كان نسي الاهانة التي لاحظتها في صوته. لكنه من النوع الذي يستطيع كتم مشاعره بسهولة.

- ألن تسخني الماء لتغسلي شعرك؟

- لن استطيع غسل شعري في هذه المغسلة الصغيرة.

قطب رادولف جبينه وبدا مهتماً للامر.

- ماذا تقترحين اذن؟

- هل بامكانك ان تحضر وعاء أكبر؟

- سأبحث عن واحد.

لا تعلم لين ما الذي دفعها الى طرح هذا السؤال المفاجيء على زوجها:

- هل صحيح ان الغجر يهددون الناس بحلول اللعنة عليهم اذا لم يعطوهم ما يريدون؟

لم ينزعج رادولف للسؤال خلافاً لتوقعها.

- اتؤمنين حقا بذلك؟

- لا، لكني اعرف كثيرين يخافون من لعنة الغجر.

وفيما هي تبحث في حقيبتها عن الشامبو أوقعت شيئاً على الارض. التقط رادولف الكتيّب وفي عينيه اهتمام كبير لم تعلم المرأة سببه.

- من اين حصلت على هذا الكتيب؟

- من قصر السيد دوغي الذي زرته يوم التقيتك.

تكلمت لين عن ذلك اليوم كأن دهوراً مرت منذ أن تجولت في تلك الحدائق الرائعة.

لاحظت ان زوجها لم يكتف فتابعت:

- حدائق القصر تفتح للزوار في بعض الايام خلال فصل الصيف. لا بد ان مالك القصر مليونير.

غرقت لين في حلم أعاد اليها اللحظات السعيدة التي نعمت بها في ذلك اليوم وقارنت بينها وبين ما هي عليه الآن، هناك الحرية المطلقة وهنا السجن الرهيب.

تنهدت المرأة وزوجها ما يزال يحدق فيها بفضول.

- متى قمت بهذه الزيارة الممتعة؟

كان سؤال الغجري ملحاً الى درجة كبيرة. اذ يبدو ان معرفة موعد الزيارة أمر حيوي بالنسبة اليه. فأجابت لين وعيناها سارحتان في الحدائق الساحرة:

- يوم السبت الماضي.

قادتها ذكرى الحدائق الى التفكير بالفرار وتذكرت ان سبيلها

الوحيد الى الخلاص هو المال الموجود في حقيبتها والذي ستغري به كونيل ليساعدها على الافلات من قبضة خاطفها.

حاول رادولف استعادة تفاصيل ذلك اليوم وهو يتمتم:

- السبت الماضي...

أوضحت له لين:

- قبل ان تقوم باختطافي بيوم واحد.

هزّ رأسه وهو يفكر عميقا ثم سألها:

- ما رأيك بالحدائق؟

لم تفهم المرأة سبب سؤاله فاستوضحته:

- لماذا تسألني؟ هل تعرف الحدائق لتطلب رأيي فيها؟

بدا الغجري مستمتعاً بهذا الحديث فأجاب:

- نعم، زرتها عدة مرات.

مرة اخرى زلّ لسانها اذ قالت مستغربة:

- كيف سمحوا لك بالدخول؟

وضعت لين يدها على فمها لتمنع خروج المزيد من الكلمات الجارحة. ورأت عيني الغجري تلمعان سخطاً.

اقترب منها الرجل مهدداً:

- اوضحي سؤالك. أتعنين أن مستواي الوضيع لا يليق بمقام زوار تلك الحدائق؟

حاولت المرأة ان تخرج من المأزق فقالت:

- آسفة، اعتقدت أن...

- أن ماذا؟

مدّت لين ذراعيها متوسلة ومحاولة إيقاف غضبه.

- انا حقاً آسفة. ارجوك ان تنسى الموضوع.

انتظرت المرأة الشابة رداً عنيفاً من زوجها لكنه لم ينبس ببنت شفة. متى ينفجر ويعطي سجينته نصيبها من العقاب الذي تستحقه على هذه الاهانة؟ لكن كل ما فعله الرجل انه رمى الكتيب في الحقيبة

وخرج من العربة.

راقبت لين مشيته المتوازنة وجسمه الرشيق. لماذا لم تلاحظ فيه هذه الاشياء عندما قابلته المرة الاولى؟ لا شك ان الخطر الذى كان محدقاً بها آنذاك لم يسمح بذلك. فجلّ ما صبتْ اليه كان الافلات من قبضته، الأمر الذي تحقق بفضل الفتاة الغجرية. من هي هذه الفتاة التي أطاعها رادولف فوراً؟ لا بد ان لها مكانة كبيرة في حياته كي ينفذ أوامرها وهو الرجل الصلب العنيد. لو لم ترَ المشهد بأم عينيها لما صدقت ان رادولف ينصاع لامرأة غجرية كالحمل الوديع. ربما كانت الغجرية تعرف سرّاً لو فضحته لأوقعته في ورطة كبيرة. لكن هذه الفكرة مستبعدة لأنها لو صحت لما تجرأ رادولف على خذل فتاته والزواج من غيرها. أرادت لين ان تعرف حقيقة العلاقة بين زوجها والغجرية. لكنها تخاف من اثارة ذكرى اللقاء الاول كي لا يغضب رادولف وتسبب لنفسها ما لا تحمد عقباه. فلو كان الرجل يرغب في التحدث عن اللقاء لكان فعل ذلك بنفسه. لا بدّ انه يتناساه لأنه يخجل فعلاً من فعلته الدنيئة. عاد رادولف حاملاً وعاء اصفر كبيراً.

- هل يكفيك هذا؟

- بالطبع ولكن من المستغرب ان تزعج نفسك من أجلي.

- قلت لك يا لين انك لم تري الجانب الاسوأ مني بعد. وأقول الآن أنك لم تري الجانب الحسن كذلك.

ادركت لين انه يجب عليها اكتشاف حقيقة هذا الرجل والتعرف الى شخصيته الغامضة اكثر. مع ذلك هزت كتفيها بعدم اكتراث لأن رغبتها في الفرار ربما تفوق فضولها في اكتشاف حسنات رادولف.

غسلت شعرها في المطبخ وعندما عادت الى «غرفة الجلوس» في العربة تخلّى رادولف عن قراءة مجلة وقام يتولى مهمة تجفيف شعرها. شعرت لين بالدفء يغمرها لوجودها قرب زوجها الذي رمى المنشفة اخيراً وأخذ وجهها بيديه القويتين محدقا في عينيها الزرقاوين. ارتعشت شفتاها وكادت أن تبدأ بالبكاء وهي تتذكر زياراتها الى

صالون التزيين حيث كانت تمضي اوقاتاً فرحة تتحدث الى صديقتها. . . لحظات بعيدة كأنها تنتمي الى أزمنة غابرة لن ترى لين لها وجهاً بعد اليوم.

انتشلها صوت رادولف الرقيق من تأملاتها:

ـ كم انت جميلة يا لين.

طوقها بذراعيه وطبع على وجنتها قبلة طويلة. لم تقاومه لين لكنها وجدت الدموع تترقرق في عينيها.

ـ ارجوك! لم اعد أتحمل اكثر!

ـ عناقي؟

ـ كل شيء! ألا تفهم اني لا يمكن ان اعيش سجينة طيلة حياتي؟

ابتعدت لين عنه وشعرها ينسدل بفوضى على كتفيها ودموعها ترسم خطوطاً بيضاء على وجهها الناعم.

اضافت بتوسل آملة في ان يرقّ الغجري لحالها:

ـ دعني اذهب. لا يمكن ان تحبسني في هذه العربة إلى الأبد. انت تعلم ان ذلك مستحيل.

أطرق رادولف يفكر فظنت لين انها نجحت في اثارة مشاعره الانسانية الراقدة في اعماق شخصيته الشريرة. في اي حال هو قال انها لم تر منه الجانب الأحسن بعد. فربما رأت هذا الجانب الآن.

تهاوت أحلامها عندما هز الرجل رأسه وأكدّ:

ـ انت زوجتي ومكانك معي. تزوجتني بارادتك. . .

ـ بارادتي! كيف تستطيع ان تقول ذلك؟

ـ لماذا لم تظهري أي اعتراض خلال اتمام مراسيم الزواج؟

رمقها بنظرة ماكرة وأجاب على سؤاله بنفسه:

ـ لأنك كنت تأملين بالفرار لوجودك خارج العربة، اليس كذلك؟

ـ بالطبع كنت آمل في الفرار، وهل تلومني على ذلك؟

ـ وهذه الامال ما زالت موجودة على ما اعتقد.

تذكرت لين الشاب كونيل الذي أحضر لها قلماً. كما تذكرت المال

في حقيبتها وعرفت ان عليها اخفاؤه لئلا يكتشف زوجها خطتها وتضيع جهودها ادراج الرياح.

اعترفت له بصراحة:

ـ أنا أنتظر الفرصة المناسبة للهرب. واعتقد أن من يكون في موقعي يفعل الشيء نفسه.

تنهد رادولف طويلا معترفاً بصحة موقفها. نظرت اليه زوجته بذهول. هناك شيء عجيب في هذا الرجل وفي هذه القصة كلها. لربما استطاع كونيل ان يساعدها على حل اللغز المستعصي.

اقترب رادولف منها ووضع يده على كتفها محاولاً تهدئتها ومسح دموعها.

ـ ارجوك دعني. . .

ضمها الى صدره بحنان فأخذت ترتعش بقوة حتى تركها اخيراً دون ان تبدر منه اية حركة عنيفة. جلّ ما فعله كان اطلاق تنهيدة محملة بالهموم.

ـ سرّحي شعرك قبل ان ينشف.

خبير حتى في أمور النساء غير الغجريات. فهؤلاء لا يكترثن لأمور التجميل فيتركن شعرهن على طبيعته فيزيد من مظهرهن بدائية ووحشية.

لا شك ان رادولف يعرف اكثر مما يتوجب عليه كغجري لا يهتم لما يجري في العالم المتحضر. فالغجر عادة يكونون متقوقعين على انفسهم، مكتفين ذاتياً في عالمهم الخاص.

سرحت لين شعرها تحت نظر زوجها وتساءلت عما يدور في خلده هذه اللحظات. ماذا يخبىء خلف هذه الملامح الوسيمة الغامضة؟ ما هي النوايا الحقيقية لهاتين العينين السوداوين اللامعتين؟ أهو لمعان الذكاء أو الشر؟ ام لمعان الإثنين معاً؟

فجأة بدأت لين تبحث في ذاكرتها عن نقطة معينة غير واضحة تماماً. نظرت في المرآة الى فمه وأدركت ان قبلاته صارت مختلفة عما

كانت عليه في لقائهما الأول. كانت قبلات مهينة بوقاحتها أما الآن فاصبحت رغم حرارتها، اكثر احساساً وانسانية! لماذا غابت الامارات النبيلة عن وجهه في ذلك اللقاء. . . يبقى التفسير الوحيد لتبدل رادولف منذ ان حاول الاعتداء عليها هو انها كانت ساعتها في حالة رعب شديد جعل رؤيتها للرجل مشوشة، وزاد خيالها في تصوّر شره وعدائيته.

قطع صوت رادولف حبل افكارها:

ـ بماذا تفكرين؟ أرى على وجهك مشكلة مزعجة.

ـ تماماً، مشكلة الهرب!

جزّم الغجري ببرود:

ـ مشكلة لن تجدي لها حلاً. ولكني أرى شيئاً آخر في عينيك فما هو؟

أتخبره لين بأنها تجده الآن مختلفاً، وبالتالي تذكره بالحادثة الاولى التي لا يحب الخوض فيها؟ هزّت كتفيها وكأن لا شيء يشغل بالها وتابعت تسريح شعرها.

كرر رادولف سؤاله:

ـ ما الأمر؟

ـ وهل انا مجبرة على الاجابة؟

ـ بالطبع والا لما وجهّت اليك السؤال.

نظرت اليه بتردّد وقالت:

ـ قد لا يكون جوابي صادقاً.

ـ انا اعرف بسهولة متى تكذبين عليّ.

ربما كان صحيحا ان الغجر يملكون حاسة سادسة ويسبرون أغوار النفس البشرية كما يدّعون.

ـ كنت في الحقيقة استعيد ذكرى لقائنا الاول.

واخيراً تجرأت على ذكر ما يتعلق بالحادثة الاولى. وكما توقعت تجهّم وجه زوجها بسبب ذلك.

ـ من الافضل ان تنسي اللقاء الاول.

لم تفهم لماذا يعتبر زوجها حادث السيارة تافهاً ويركز على الحادث الثاني في الغابة. ولا تفهم كذلك لماذا يغضب لذكر الحادثة الاولى مع ان لين هي الطرف المهان والمجروح.

قررت لين ان تكمل المشوار الذي بدأته:

ـ ولماذا أنساه؟

ـ لأنني احاول ان انساه واذا تحقق ذلك تحققت مصلحتك.

ملأتها كلماته حيرة وذهولاً فقالت:

ـ لا اعتقد اني فهمت قصدك.

ـ لنغير الموضوع يا لين!

من يسمع لهجته الآمرة يظنّه سيداً يكلم خادمته مع ان الحقيقة قد تكون العكس في معظم الاحيان. فالغجر هم عادة الخدام وهم الوضعاء.

لم تأخذ لين بنصيحته واصرت على اكمال الحديث:

ـ تريد نسيان الحادثة لأنك تخجل من نفسك!

ـ اخجل من نفسي؟

رفع حاجبيه تعجباً واضاف:

أنت من يجب ان يخجل من نفسه.

ـ ولكن. . .

ـ اخرسي ولا تجادلي!

خرست لين بالفعل واستأنفت تسريح شعرها دون ان تفهم موقف زوجها. قررت اخيراً صرف النظر عن مناقشة الموضوع لأن ذلك لن يفيدها بشيء.

ـ أريد أن أجفف شعري.

ـ ما رأيك بالخروج الى الشمس؟

ـ أتمنى ذلك.

نهض رادولف من اريكته بكسل وعلى وجهه علامات الضجر.

www.elromancia.com

غريب احتفاظه بالرشاقة رغم كسله وبطالته.

اتجها الى الغابة تراقبها نظرات النساء الغجريات الفضولية، لكن رادولف تفهم الموقف ولم يدع مجالاً لاختلاط زوجته ببقية قومه.

ـ أشعة الشمس قليلة هنا بسبب تشابك الاغصان. هلا اتجهنا صوب الطريق المكشوفة للشمس؟

ابتسم رادولف وقال:

ـ لا ياعزيزتي لن نتجه صوب الطريق.

ـ أتخشى محاولتي الفرار؟

ـ قد تقومين بمحاولة حمقاء.

ـاعترف أنك مصيب لأني سأحاول الهرب

ـ انت صريحة على الأقل.

ـ ماذا تعني بعلى الاقل؟

ـ أعني ان غطرستك وغرورك مثلاً يجعلانك تحتقرين الناس...

قاطعته لين:

ـ اذا كنت متغطرسة فماذا تكون أنت؟

اجابها برّقة كوالد يؤنب طفله المشاغب:

ـ انا اعاملك بالمثل ليس إلا.

مرة جديدة سامحها رادولف على كلامها القاسي فشكرت ربها لأنها تفادت غضبه.

تابعا سيرهما بصمت تستغل لين فرصة وجودها خارج العربة لتشبع رئيتها هواء نقياً وعينيها خضرة حالمة. كانت من وقت الى آخر تسترق النظر الى زوجها فترى التناقض بين ملامحه الراقية وكونه غجرياً. مشيته تجعله يبدو نبيلاً وشعره المشعث المتراخي بفوضى يردّه الى طبيعته الغجرية.

اختار رادولف لهذه النزهة وادياً صغيراً تحفه الاشجار لا أمل فيه لزوجته بان تلتقي احداً يساعدها على الهرب.

قال رادولف وهو ينظر الى شعرها:

ـ باستطاعتنا العودة الآن.

اخذ خصلة ووضعها على خدّه قائلاً:

ـ يا للضفائر الجميلة!

لم تنفع معارضة لين لحركته بل زادت من حدّة عناق رادولف.

ـ عليك ان تفهمي شيئاً يا لين. كوني طيعة معي تصبح حياتك ممتعة.

ـ أنا لا اتصور اية متعة في العيش إلى جانبك!

كانت لين تتمنى لو انه يملّ منها ومن صدّها فيتركها تعود الى بلادها.

عادا الى العربة فأمرها رادولف بتحضير الطعام. وقفت لين ترمقه بنظرة تحد وهي تغلي من الغضب لمعاملته اياها كخادمة.

ـ لا اريد توجيه الامر اليك مرتين لأنك تعرفين نتيجة ذلك يا حلوتي!

دخلت لين الى المطبخ دامعة لتحضّر الطعام الذي قد تكون السرقة طريقة حصول زوجها عليه.

ـ بالله عليك يا لين! انزعي حلة الحزن هذه عنك لئلا احوّلها الى حلّة دائمة!

على الرغم من الغيظ الذي غلف نبرته وجدت لين في كلامه نوعاً من السأم والتعب من هذا الوضع.

لم تحضر لين الا طبقاً واحداً فسألها زوجها:

ـ أين طعامك؟

ـ لست جائعة.

ـ مع ذلك ستأكلين إكراماً لي. لأني لا أحب الجلوس الى المائدة لوحدي.

ـ من تظن نفسك حتى ترغمني على الأكل؟ اشعر كأنك سيد اقطاعي يفعل باتباعه ما يشاء!

تخلّت لين عن المجادلة في النهاية فأحضرت طبقا وجلست تأكل

رغم انفها.

- ارى ان دروسي في تعليمك الطاعة بدأت تثمر ياحلوتي!

قالت لين بمرارة:

- السلطة والسيطرة توفران لك الرضى والسرور أليس كذلك؟

- أصبت، اذ ان كل ما يذلك يمتعني. وأعدك بأن هذا العقاب البطيء لن ينتهي قريباً.

- النهاية؟ تكلمت عن نهاية العذاب!

- بالطبع فأنا لا أنوي ان أطيل العذاب اربعين او خمسين سنة.

ارتعدت لين للفكرة وتصورت نفسها تمضي حياتها في هذه العربة.

- اتمنى ان اموت قبل ذلك بكثير.

زال المرح والعبث من عيني رادولف وقال:

- طفلة رائعة مثلك يجب ان تتمتع بالحياة لا أن تتكلم عن الموت.

تخلت لين عن حذرها وانفجرت غاضبة:

- لا تتكلم كالأبله فأنت تدرك أن حياتي هنا جحيم مستمر!

وافق رادولف وقال ملمحا الى شيء تجهله زوجته.:

- حالياً فقط.

- حاليا وأبداً اذا استمريت في سجني.

- فلنغير الموضوع يالين. اخبريني عنك فأنا لا اعلم كم تبلغين من العمر مثلا! تصوري ان زوجك لا يعرف عمرك.

- انا في الرابعة والعشرين، وانت؟

- تخطيت الثلاثين ببضعة شهور. اخبريني المزيد عنك، اخبريني فأنا أحب سماع صوتك.

- لا اعتقد انك تحب سماعه دائماً.

- من المؤسف انك تفسدين حلاوة صوتك احياناً بتصرفاتك الرعناء.

استرسلت لين في الحديث واستمتع رادولف بالاطلاع على

تفاصيل حياتها.

- يبدو ان توماس هذا مملّ بعض الشيء.

- كيف عرفت ذلك؟

- من خلال حديثك عنه. نحن الغجر أذكياء يا عزيزتي!

- انا لم اقصد اظهاره مملاً.

- توماس ليس الرجل المناسب لك يا جميلتي.

- انت مخطيء في حكمك على توماس.

- توقعت ان تنكري ذلك. يا لك من شخصية شفافة يا لين اقرأها بكل سهولة.

صبّت المرأة اهتمامها على طبقها لتفادي نظراته الأسرة فأكمل الغجري الكلام:

- من المؤسف ان تكوني مصابة بعقدة التفوق حتى لا أقول جنون العظمة. يجب ان تتعلمي ان جميع الناس سواسية وان المجتمع الغجري ليس فاسداً لأنه يختلف عن مجتمعك. لا يجدر بك احتقار الناس لمجرد انتمائهم. المجرم وحده حري بالاحتقار والنبذ.

كان صوته مختلفاً هذه المرة حتى ان لين وجدت فيه رنة موسيقية كاللهجة الايرلندية. برغم انه يكون احياناً قاسياً فان لهجته تختلف عن لهجة بقية الغجر. لم تفهم لين لماذا او لم يعد يهمها ان تفهم ما دام هدفها واضحاً: الهرب.

- لم يتهمني أحد من قبل بهذه العقد التي تتحدث عنها.

- لكنك اظهرت عقدتك تجاهي.

تبع ذلك صمت بارد وتشنج الجو بينهما. أحست لين بأن الغجري يكاد ينفجر غضباً وبالفعل قال لها بفظاظة:

- اذا اخطأت بعد اليوم ساملأ جسمك بقعاً زرقاء!

اشاحت المرأة وجهها لئلا تواجه عينيه القادحتين شرراً.

بعد قليل خرج رادولف فعادت لين الى وحدتها المملة برغم انها لا تستسيغ صحبة زوجها، لكن وجوده أفضل من لا شيء.

استغلت فرصة غيابه لتخرج المال من حقيبتها وتخبئه وراء بعض المعلبات في خزانة المطبخ. ثم انصرفت لكتابة رسالة قصيرة الى الشاب الغجرى كونيل تعده فيها بمكافأة مالية فورية واخرى ترسلها له بعد فرارها على عنوان يحدده لها. قررت لين ان تمنحه كل ما ادّخرته خلال عملها فهي مستعدّة للتضحية بكل شيء لقاء خروجها من هذا النفق المظلم. لن يستطيع كونيل مقاومة اغراء العرض وسيتدّبر طريقة لتهريبها في أول فرصة تسنح له.

بعد الانتهاء من الكتابة جلست المرأة الشابة على طرف السرير تمضي الساعات في التفكير بمتاعبها وتتخيل نفسها حرة طليقة الى ان غلبها النعاس اخيراً وتسلّل النوم الى عينيها.

٥ ـ الحلم يموت في مهده

أفاقت لين، والظلام الدامس يلف العربة، على صوت الغجر يغنون ويرقصون حول نار كبيرة اشعلت في وسط المخيم. ولم تستطع الا ان تستعيد ذكريات حياتها الهادئة في انكلترا ووظيفتها المحترمة في شركة الهندسة الزراعية. ساهم ذلك في زيادة توترها الى درجة خافت معها ان تفقد صوابها يوماً اذا استمرت على هذه الحال. ماذا سيجني رادولف من وجود امرأة مجنونة معه؟ لو يدرك ويعلم ان كليهما خاسران لأطلق سراحها فوراً.

فجأة سمعت طرقاً خفيفا على النافذة فهبت من سريرها وأزاحت الستار بسرعة.

ـ كونيل!

www.elromancia.com

تكلّم الشاب بصوت هامس:

- اخفضي صوتك لئلا يسمعنا أحد!

لكن الاثارة والقلق جرداها من كل خوف وحذر.

- لا تقلق. الكل مشغولون عني الآن.

- هل كتبت الرسالة؟

هرعت لين وأحضرت له الورقة.

- ارجوك انتبه يا كونيل ولا تدع احداً يراك.

- علي الذهاب الآن. طابت ليلتك.

- شكرا جزيلا يا كونيل على ما تفعله من اجلي.

قال الشاب قبل ان يختفي في الظلام:

- لا اعلم ما اذا كنت قادراً على مساعدتك، لكني سأبذل جهدي.

خافت لين من ان يكون احد شاهد كونيل يتحدث اليها خصوصاً وان النار تسللت الى العربة تضي لونها الرمادي الحزين ببريق قرمزي. أجالت نظرها في الخارج لترى ما اذا كان زوجها يراقب المشهد ويستعد للانقضاض من جديد على فريسته الضعيفة. لكن كل شيء كان هادئاً ولم يبد أثر لانسان حول العربة.

بعد نصف ساعة عاد رادولف الى «المنزل الزوجي» من دون ان تظهر على وجهه علامات تفيد أنه علم بما حصل. اضاء المصباح العتيق بعد ان رأى ان زوجته غير نائمة.

- لماذا تجلسين في الظلام؟ أتحبين ان تعذبي نفسك؟

- ولماذا تحفل بعذابي؟

- في الحقيقة انا لا احفل بعذابك.

وأضاف بنبرته الخشنة:

- ماذا فعلت في غيابي؟

- لا شيء!

توجه رادولف نحو المطبخ وسأل زوجته:

- أتريدين بعض الشاي؟

- كلا.

- لا بد انك شربت فنجانا اذن؟

- لا.

سمعته لين يتنهد تعباً وهو يعد الشاي وتساءلت لماذا لم يطلب منها ان تحضره بنفسها.

عاد بعد قليل يحمل فنجانه فسألته باصرار:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

توقعت لين جوابا قاسيا يشعل مشادة جديدة. لكنها فوجئت بزوجها يرمقها بنظرة ناعمة مليئة بالحنان. هي قصدت من سؤالها اشعال غضبه لتعذبه لكنه خيب أملها بهدوئه.

جلس على كنبة يحتسي شرابه الساخن ويراقب زوجته بنظرة لا مبالية.

- اريد ان اراك غداً بثياب جديدة.

افرغت لين دفعة واحدة كل الغضب الذي جمعته في وحدتها وقالت:

- سأرتدي ما يحلو لي.

- لا تحاولي الظهور بمظهر المرأة الشريرة. سترتدين شيئا مما احضرت معك لتمضية العطلة الممتعة. تاهت عيناها في حقيبتيها المقفلتين على بعض من ذكريات، قريبة كالوقت بعيدة كالحلم. كيف تضع ثيابها الانيقة في خزانة العربة القذرة؟

ليس من المعقول ان تكون هذه العربة ملكا لرادولف فهو يبدو محباً للنظافة والترتيب. ثم انه لا يحتفظ فيها بثيابه او بممتلكات اخرى. تحفظه حول خصوصياته يحيرها كثيرا ولكنها لا ترغب في الاطلاع على خفايا حياته لأن قواها منصبة الان على هدف وحيد: الفرار.

قالت لزوجها بعد تردد:

- لا أرى معنى لارتدائي ثيابا جميلة وبقائي سجينة هذه الزنزانة!

- لن تبقي هنا لأننا سننتقل غداً بسيارتك الى مكان آخر.

أحست لين ان قلبها توقف عن الخفقان لأن الآمال التي علقتها على مساعدة كونيل انهارت بلحظة.

- ألن يرحل الباقون؟

- لا. نحن فقط.

كادت لين بعفويتها تفضح كل شي.

- لا اريد ان أغادر المخيم.

صعق رادولف لملاحظتها واخذ ينظر اليها دون ان يفهم.

- وهل تستسيغين البقاء هنا الى هذا الحد؟ مع انك لم تكفي عن التذمر من الضجر.

عضت لين على شفتها تحاول ايجاد جواب لا يفضحها. واستطاعت بعد جهد ان تقول:

- المكان الذي سنذهب اليه لن يكون احسن من هنا. وأنا لا انوى تمضية وقتي بالتنقل الدائم كالغجر المتشردين.

لم تأبه المرأة لغضب زوجها من كلامها لأن عقلها كان مشغولا بفرصة الهرب الضائعة. ظنت ان الفرج سيأتيها اخيرا على يد كونيل لكنها وجدت نفسها كقابض على الماء تعود الى نقطة الصفر.

برغم كل شيء حافظ الغجري على هدوئه ولم يظهر انفعاله لنعت زوجته قومه بالمتشردين.

- لا تحاولي الاعتراض لأني مضطر لمغادرة المخيم.

تساءلت لين عما يمكن ان يكون سبب هذا الاضطرار.

- ولماذا تكون مضطرا للرحيل؟

- لا ضرورة لأن تعرفي.

- وهل سنجد عربة شاغرة في المخيم الذي سنقصده؟

- بالطبع. ألست ملك الغجر كما قلت يا عزيزتي؟ والرعية لن تدخر جهدا لتوفر مكان اقامة مريحا لملكها.

اخذت لين تجوب العربة وهي تفكر بالمخيم الجديد والعربة

الجديدة القذرة، وبمزيد من هؤلاء الناس السمر الفضوليين. سجن جديد وحراس جدد يرصدون تحركاتها عندما يكون زوجها غائباً.

وفجأة انهارت اعصابها وصرخت:

- لا استطيع تحمل المزيد! لا استطيع البقاء سجينة. سيقتلني الضجر!

واضافت وهي تحدق في رادولف:

- كيف تستطيعون تمضية أيامكم بكسل؟ الا تملون من عدم الحراك؟

وضع الغجري فنجانه على الطاولة ونهض من كرسيه دون ان يظهر عليه اي انفعال مما زاد من حيرة لين التي قالت:

- هناك لغز في حياتك! هناك شيء مخبأ! الى اين تذهب كل يوم فأنت ولا شك لا تبقى في المخيم؟

أزاح الغجري وجهه وكأن ملاحظاتها احرجته فاستغلت لين الفرصة وتابعت بالحاح شديد:

- اريد ان اعرف كل شيء! أنت تذكرني باستمرار اني زوجتك ففي هذه الحال يحق لي ان اعرف اين وكيف يمضي زوجي اوقاته؟

لم تفهم لين سبب اصرارها وتشوقها لمعرفة المزيد عن هذا الغجري الغامض. ربما كان شعورها بالفراغ سبب هذا الفضول الكبير أو انها بحاجة الى شيء يشغلها ويجعلها «تشترك» بشكل أو بآخر في حياة مجتمعها الجديد. لكن رادولف لم يشبع فضولها اذ اكتفى بالقول:

- انت لم تعتبري نفسك زوجتي حتى الآن. فعندما تعتبرين اننا متساويان ستعرفين كل شيء. لكن ما دمت تعتقدين انك متفوقة علي لأنني غجري فلن أطلعك على الحقيقة.

كل شيء في هذا الرجل يزيد من اللغز غموضاً: جسمه الرشيق، مشيته المتعالية، كبرياؤه وسطوته، ثقته المفرطة بنفسه. ومرة جديدة قالت لين في نفسها: لو لم اكن اعلم انه غجري لما صدقت ابدا انه

كذلك. عندما فكرت بأولاف وبحديثه عن وضع رادولف الخاص، فتلك الكلمة انطبعت في مخيلة لين وجعلتها تظن ان زوجها هو ملك الغجر. هو ليس بالطبع ملك الغجر لكنه يتميز عنهم بشيء ما...

لما نظر اليها رأت المرأة في عينيه مرارة كبيرة كأنه يطلب منها ان تتفهمه وتساعده على تخطي مشكلة لم تستطع بعد ادراكها ومعرفة القصد منها.

أجابت لين أخيراً على اقتراح رادولف باعتبار نفسها في مستواه:

- لن اعتبر نفسي ابدا في مستواك.

أعوز كلماتها الثقة والتصميم لأنها لم ترد التسبب في المزيد من الاهانة لهذا الرجل. ولانها لم ترد توسيع شقة الخلاف بينهما أكثر. وهو قادر في جميع الاحوال على تقليص هذا الفارق «الطبقي» بينهما عندما يتشاطران بعد قليل السرير نفسه حيث يمارس سلطاته المطلقة بدون ان تحاول المرأة المسكينة ابداء أدنى اعتراض.

هزّ الغجري رأسه وقال:

- في هذه الحالة لن تعرفي عني أكثر مما تعرفين.

انقلب السحر على الساحر وشعرت لين انها ذليلة عاجزة امام نبرته المتغطرسة. فتمنت لو تستطيع ايجاد الكلمات الملائمة لترد له الاهانة لكنها فشلت.

- الى اين سنذهب؟ أعني اين يقع المخيم الذي تحدثت عنه؟

اكتفى الرجل بالقول:

- في مكان بعيد جداً.

- ولكن ماذا سنفعل بالحصان؟ لا يمكنك اصطحابه اذا كنا سنستعمل السيارة.

كان رد رادولف هادئاً وعاديا جدا:

- بما اني سرقته سأعمل على رده الى اصحابه.

- لا ضرورة لأن تستغل كل فرصة تسنح لك لتسخر مني.

- ولكنك افترضت اني سرقته، أليس كذلك؟

- ولماذا لا تقول لي من أين حصلت عليه؟ فأنت توافق معي على انك لست قادرا مادياً على امتلاك مثل هذا الحيوان الرائع.

كل كلمة، كل حركة، كل دقيقة تمر كانت تزيد من غموض اللغز وصعوبته بالنسبة الى المرأة. ما السبيل الى اكتشاف الحقيقة وازاحة الستار عن الجوانب الخفية في حياة الغجري؟ قد يكون الوقت كفيلا بذلك... وقد لا يكون.

استوضح رادولف زوجته:

- لم أفهم تماما معنى كلامك.

- بصراحة، أعني ان مظهرك لا يوحي بأن هذا الحصان الأصيل ملك لك.

كانت الاهانة الجديدة أقوى من ان يتحملها الرجل. فعندما تكلم بدا فاقداً تماما سيطرته على اعصابه، يعميه الحقد.

- لا بد ان يقودك لسانك يوما الى مهلك لانجاة منه.

وجدت لين نفسها تعتذر على الفور منه وحاولت تغيير وجهة الحديث.

- آسفة لاني اسأت التعبير. ألن تخبرني من أين حصلت على الحصان؟ انه حصان أصيل ان لم اكن مخطئة.

- من أين لك هذه المعلومات عن الجياد؟

- انا لا اعرف الشيء الكثير لكني رأيت مثله عندما كنت أمارس الفروسية لبضع سنوات خلت.

بدل ان يجيب على تساؤل لها حمل رادولف فنجانه الى المطبخ ولما عاد بدأ يخلع ملابسه.

- حان وقت النوم لاننا سننهض باكراً في الغد.

سارعت لين الى تبديل ملابسها فيما زوجها منشغل بالبحث عن صحيفة أحضرها، والقراءة ليست بالطبع عادة غجرية، حتى لا تضطر الى فعل ذلك امام عينيه الفضوليتين والساعيتين الى التمتع بجمال قدها.

انصرف رادولف بعد ان وجد صحيفته الى التفتيش في حقيبة زوجته حتى وجد فستاناً قطنيا ازرق مفتوحا عند الصدر.

- سترتدين هذا الفستان غداً لانه يبرز جمالك بسخاء.

نشلت المرأة الفستان من يد زوجها ورمت به على الارض رافضة فكرة فرضه ارتداء الملابس عليها. ولكن رادولف لم يتسامح هذه المرة. بل أمسك بشعرها وصفعها على وجهها بعنف حتى كاد يرميها ارضاً. ولم يتوقف عن ضربها حتى تعب وروى غليله منها. وقفت المرأة أمامه ترتعش والدموع تختلط مع الخصلات السوداء المترامية على وجهها المتورم. هذه أول مرة تمد يد اليها وتعامل بمثل هذه القسوة. فهي لم تتعرض في حياتها لتجربة مع جلاد كالغجري رادولف.

- التقطي الثوب!

أطاعت لين أمره ودفنت وجهها في الثوب تحوله مجرى لدموعها الغزيرة. ثم صرخت بصوت مخنوق:

- لن استطيع المتابعة! لن استطيع الصمود... سأنتحر!

فوجيء الرجل لهذا التهديد ووقف يحدق في زوجته لحظات طويلة قبل ان يضمها بحنان الى صدره ويقول بكل ما لديه من رقة:

- لماذا تغضبينني يا عزيزتي وترغمينني على استعمال العنف؟

اضاف وهو يتحسس بيده القوية وجنتيها اللاهبتين:

- لو كنت تتصرفين بروية...

توقف محاولا تهدئة جسمها المنتفض ألماً وحزنا ثم تابع:

- على المرء ان يكون حذرا عند ما يتعامل مع غجري.

تمتم عدة كلمات اخرى خيل للين ان من بينها: الجانب الاسوأ مني... الصقت رأسها بصدره العريض المضياف تودعه همومها واحزانها وتصغي الى دقات قلبه المطمئنة ورتابة تنفسه العميق. بدأ اضطرابها يزول وهدأت بعد ان اطلقت تنهيدة طويلة وسمعت زوجها يهمس:

- هذا افضل بكثير يا حلوتي. لا أريد بعد الآن أن أرى الدموع على وجهك الجميل.

تمكنت المرأة اخيراً من رفع عينيها الرطبتين الى وجه زوجها وتمتمت بعد ان علمت انها ترتاح كثيرا الى الوجود بين ذراعيه القويتين، وتمنت لو يبقيان هكذا الى الابد:

- انت مختلف... يا ليتك تظل كما كنت الآن...

أمر لا يصدق! كيف تسر لين لوجودها في أحضان هذا الرجل الذي لا تكف ثانيه عن التفكير في كيفية الافلات من يده؟ لماذا لم تنفر هذه المرة من لمساته؟ لماذا لم تخف من تحمل قبلاته؟

أضافت والكلمات تسبقها:

- لماذا انت مختلف؟

بدا على رادولف كأنه يقبل بهذه الحقيقة ولكنه لا يقوى على ان يصرح بالسبب لأن هناك أمراً خطيرا يمنعه من ذلك، لربما كان أمرا يتعلق بالماضي ويمد تأثيره على المستقبل.

- لا استطيع يا عزيزتي ان اشرح لك الحقيقة...

ابتعد عنها وزاد:

- هيا الى النوم يا حلوتي.

وقفت لين مشدوهة وهي تشاهد زوجها يتوجه الى المطبخ ليحضر بعض الماء. واستغربت التبدل العميق الذي احدثه تهديدها بالانتحار في هذا الغجري الغريب. لم تعد تأبه بالألم الذي سببه لها بل انحصر تفكيرها في التوصل الى كنه نفسه وكشف حقيقته.

عندما عاد رادولف الى الغرفة أخذ يحدق بلين واقفة بقميص نومها الأحمر ويتأمل جمالها الصارخ من رأسها حتى أخمص قدميها، ولاحظت الزوجة الحائرة العروق في عنقه تنبض بعصبية وصدره المغطى بشعر أسود كثيف يسرع في الصعود والهبوط. يا لتناسق لون عينيه مع لون بشرته ولون شعره! ان رادولف في الحقيقة ينضح رجولة تجعله حلم كل امرأة... بشرط ان تنتفي منه واحدة: كونه غجرياً.

وعندما انتقلت عينا الغجري الى وجهها حيث ما زالت آثار الصفعات واضحة، ظهر عليه الأسف والندم الشديدان على استعماله العنف، تماما كما ندمت لين على استعمالها الطريقة نفسها في الغابة. اقترب منها وأخذ رأسها بكلتا يديه محاولا الاعتذار لأنه ولا بد مدرك انه اخطأ بصفعها بينما هي لا تشاطره الشعور ذاته، لأنها لا تزال مصرة في نفسها على انها كانت محقة في استعمال السوط لتدرأ خطر الاعتداء عنها. غفت لين بين ذراعيه ورأسها غارق في صدره الوسيع تذوق للمرة الاولى طعم الراحة في فترة «راحتها» القسرية هذه، وتحس بقلبها خاليا من الحقد والمرارة. أيكون العنف جردها من مشاعرها وأضحت دمية نكرة لا تنفعل ولا تشعر؟ أم تكون العادة سلبتها طعم الحياة فلم تعد تهتم لما يصيبها؟ أم هو الاستسلام غلبها وأقنعها بأن المقاومة لن تحقق الا المزيد من العذاب والقساوة من رادولف؟ الشيء الوحيد الذى تدركه في هذه اللحظة هو الارتياح لأن كل شيء بسلام أو بشبه سلام. . . وذلك بفضل تفهم رادولف لوضعها ولاكتفائه بطبع قبلة خاطفة على جبينها.

أمضى الزوجان الشابان معظم النهار في السيارة يتجهان الى حيث تجهل لين. تمتعا بالطقس الجميل وساهمت الشمس الدافئة بازالة حاجز العداء بين لين وزوجها، كما سرت المرأة لوجودها بعيدة في سيارتها عن اي من مظاهر الحياة الغجرية التي كرهتها والتي اسقط واقعها المرّ احلاماً شاعرية بنتها لها قصص الادباء وعمرتها أخيلة الشعراء.

لا تستطيع المرأة الانكليزية المعتادة على صخب الحياة ان تحيا هكذا وبدون هدف كنبتة طفيلية تعيش على جهد غيرها. لا بد لها من هدف واضح في حياتها تصبو اليه وتعمل على تحقيقه. فالطريق ان لم يفض الى مكان ليس طريقاً. وقطار الحياة ان لم يقصد محطة ما يصير خرضة معطلة.

هدف لين في الحياة ليس معجزاً، فجل ما تريده ان يكون لها منزل

هادىء تعيش فيه بطمأنينة مع عائلة يسود وشائجها الحب ويجمع أفرادها الحنان. والحياة مع رادولف في عربة قذرة انكسار لحلمها وسحق للطموح.

كم كان كونيل مهماً بالنسبة اليها وكم أحست بالخيبة لأنها ابتعدت عنه! كان حلماً خرج من العدم ليخصب ارضا جدباء. فاذا بيد رادولف تمتد لتخنق الحلم وهو في المهد ولترمي بلين في مكان جديد لا تعلم ماذا ينتظرها فيه سوى مزيد من الوحدة والملل. لكن ما أبقى في نفسها اثرا من أمل هو تلميح رادولف الى امكانية العودة الى المخيم نفسه في يوم قد لا يكون بعيدا.

لاحظت لين، الغارقة في المقعد الوثير، ان رادولف لا يلاقي أية صعوبة في القيادة مع ان الغجر لا يحسنون عادة قيادة السيارات مفضلين وسيلتهم القديمة للتنقل: الحصان.

انتبه رادولف ان زوجته لم تكف عن مراقبته طوال الطريق فنظر اليها وسألها:

ـ بماذا تفكرين؟ اراك شاردة في أمر مهم.

ـ في الحقيقة كنت اراقب طريقة قيادتك فأنت سائق ماهر على ما أرى.

ـ العادة كفيلة بتعليم المرء كل شيء.

ـ صحيح، لكني اعرف انك معتاد على ركوب الخيل خصوصا وانك قلت مرة انك تستعمل الجياد لا السيارات.

كانت لين تشيز بكلامها الى جملة قالها رادولف عندما التقيا للمرة الاولى قرب سيارتها المعطلة. حاول الغجرى ان يتذكر ذلك ثم هز رأسه نافيا.

ـ لا بد انك واهمة فأنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل.

ـ أنسيت ما قلته في لقائنا الاول؟

ـ نحن لم نتبادل كلاما يذكر في لقائنا الاول. يبدو ان مخيلتك واسعة يا عزيزتي!

أنبأها حدسها ان رادولف يتحدث عن اللقاء الثاني عندما اختطفها على أثر ضربة السوط. أثار حنقها عدم اكتراثه الدائم بالحادثة الاولى وتركيزه على الثانية وكأن لين ارتكبت يومها جريمة لا تغتفر محت آثار فعلته البشعة.

بعد ما جرى في الامس تحول رادولف بسرعة من رجل شرس الطباع، عصبي المزاج الى انسان هادىء لا تثور اعصابه لمجرد سماعه كلمة كما كان يفعل في السابق. تذكرت المرأة ما قاله البارحة، خصوصاً الجملة التي تمتمها ولم تفهم منها سوى: الجانب الاسوأ مني... لا شك في ان لهذه الكلمات أهمية قصوى لأن الغجري كان صادقاً عندما تفوه بها كأنه يدلي باعترافات خطيرة يحاول جاهدا ابقاءها دفينة أعماقه، لاعباً دور الرجل الشرير الساخر من القيم... أهو مصاب بانفصام في شخصيته يتصارع فيها الخير والشر بعنف يجعله متلوناً من ساعة الى أخرى؟ أيحاول الجانب الخير الانتصار على الجانب الشرير والافلات من براثن الغرائز البدائية؟ ان هذا الصراع ينعكس على لين بشكل دراماتيكي يجعلها رهينة مزاج زوجها المتقلب... ما حدث البارحة يعزز اعتقاد لين. فرادولف هدأ بعد ان انفجر بشدة وطغى عليه جانبه الحسن بعد ان بدا نادماً على ما فعله بها. حاول التكفير عن ذنبه بملاطفتها وتطييب خاطرها وعندما أفاق في الصباح نظف الفستان الذي رمته لين على الارض، ثم أحضره لها والبسها اياه بكل رقة ونعومة.

مراع خضراء على امتداد النظر رافقتهما في تجوالهما. «تحرسها» هضاب واسعة مغطاة بأشجار خضراء عالية تهمس في اذن السماء الصافية اشعاراً والحاناً. أوقف رادولف السيارة في مكان أخضر فسيح في منطقة تدعى كيلارني. وسار العروسان الى بقعة منعزلة فيها بحيرة جميلة تقع على سفح جبل عال.

كادت الدهشة تعقد لسان لين فأخذت تجيل الطرف في هذه الجنة الرائعة تغرف من جمالها وبراءتها فيفيض البهاء في نفسها عذوبة

وصفاء.

- ما أجمل هذا المكان! كيف تعرفت اليه؟

أجاب رادولف:

- انا اعرف ايرلندا كلها.

شع في عيني المرأة الشابة بريق وارتسمت على شفتيها ابتسامة وأحست بنفسها تسبح في بحر من الاحلام. شعرت بالدفء يغمرها عندما طوقها رادولف بذراعيه... ليته يكرر كلمات الامس بوضوح لتعرف المزيد عنه وترتاح...

- تعالي، علينا ألا نضيع المزيد من الوقت!

نظرت اليه بحيرة وقالت:

- قل على الأقل الى أين.

- ستعرفين عندما نصل.

- لن أعرف شيئاً فأنا ضائعة.

ضحك رادولف وقال:

- نحن في كيلارني وهذا الجبل يدعى الجبل القرمزي.

- لم يفدني شرحك كثيراً.

- أيهمك الى هذا الحد الاطلاع على التفاصيل الجغرافية؟

- في الحقيقة، لا.

عاد رادولف بسرعة الى السيارة وجلب سلة مليئة بالطعام. وأبلغ زوجته كالعادة انه سرق السلة ومحتوياتها من أحد المتاجر. لكن المرأة لم تقتنع بكلامه.

- أنت لم تسرق شيئاً!

- أتحاولين تبرئة نفسك من وجودك مع زوج لص لا يعرف الا السرقة وسيلة لكسب الرزق؟

اصاب رادولف بسؤاله لأن لين كانت تكره فكرة كونه لصاً. أرادته رجلاً شريفاً يحصل على لقمة عيشه بعرق جبينه... ولكن

لماذا تجد نفسها مهتمة بسلوكه؟ ما الفارق في ان يكون رادولف لصاً او رجلاً شريفاً ما دامت ستهرب منه يوماً وتسترجع حريتها الغالية؟

٦ ـ السجن الجديد

أخذت لين تتساءل ما اذا كان ممكنا الاّ يكون رادولف قد سرق كل هذه الاغراض، فمن أين اتى بالصحون والسكاكين والملاعق خصوصا وانها من الصنف الغالي؟ لا بد انه يتعاطى سرقة مثل هذه الاشياء لاعادة بيعها الى تاجر شريك بأسعار زهيدة.

سألته فيما هو مشغول بتحضير الموقد:

ـ بماذا يمكنني مساعدتك؟

ـ هلا أحضرت الاطباق ووضعتها على الشرشف؟

ـ حسناً.

تابعت لين وهي ترى الأطعمة المختلفة في السلة:

ـ من اين جلبت كل هذا؟

www.elromancia.com

جاء جوابه ساخراً كما توقعت:

- السرقة وسيلتي المفضلة لا بل الوحيدة!

تنهدت المرأة وأقرّت بأن استمرارها في طرح هذ الاسئلة يعني استمرار تلقيها مثل هذه الاجوبة. لكنها لم تترك كلماته تمر دون تعليق فقالت:

- توقعت ان تكون فعلت ذلك ولكن من أين سرقت هذه الاغراض؟

عندما ضحك الغجري وبانت أسنانه الناصعة، شعرت لين بقلبها يخفق بقوة. وحاولت ان تكتم اعجابها المتزايد بزوجها الوسيم.

- أغرْتُ في الليل على مطعم قريب من المخيم، لقد كانت مهمة غاية في السهولة!

- لا تختلق الاكاذيب. لا يوجد أي مطعم بالقرب من المخيم!

- انت مخطئة يا عزيزتي لانك لا تعرفين المنطقة كما أعرفها.

برغم دقة الموضوع ساد الحوار جو لطيف. وكان الزوجان كأي عروسين سعيدين يتبادلان أطراف حديث عذب ومرح. وحرصت لين جاهدة على عدم اثارة رادولف لئلا يعود الى مزاجه الشرس ويفسد هذا اليوم الجميل.

سألته بصوتها الرقيق:

- هل سرقت المقلاة كذلك؟

ابتسم رادولف وهو يشعل النار ثم أجاب:

- نعم ولكن سرقتها كانت صعبة وكادت تودي بي الى السجن، فقد أوقعتها على قدمي ولم أتمكن من العدو بسرعة حتى كاد رجل الشرطة يلحق بي... لكن حيلتي كانت أقوى واستطعت الافلات بعد أن اختبأت وراء سور عال.

أضاف وهو يضع شرائح لحم العجل في المقلاة:

- أفعل أي شيء كي لا أعود الى السجن لأن من يجربه مرة يبذل

المستحيل لئلا يعيد الكرة.

لم تعلق لين على كلام زوجها لأنها كانت محتارة في تصديقه أولا، بل انصرفت الى المساعدة في اعداد الطعام. وعندما اكتشفت علبة مليئة بمختلف انواع الفاكهة قالت:

- لا استطيع ان اتصور كيف جلبت كل هذا!... لا، لا تقل شيئاً عن السرقة. لقد توصلت الى واقعة ثابتة وهي أن في تصرفاتك وطريقة عيشك اشياء لا علاقة لها بانتمائك الغجري. انت... أنت مختلف. تردد رادولف طويلاً قبل أن يتحسس جرحه ويتكلم:

- ولكنك قلت اني غجري متشرد، حثالة المجتمع.

مد يده السمراء القوية وأضاف:

- ألا ترين سمرتي الغجرية؟ ولماذا تهتمين بأموري ما دمت مصممة على الهرب؟

رمقها بنظرة تحمل ألف معنى ومعنى وأكمل:

- لو كنت تودين مشاطرتي الحياة لكانت الأمور بيننا مختلفة.

لم تفهم المرأة سبب اهتمامها البالغ بأسرار حياة هذا الرجل. ولكنها أدركت الآن بشكل لا يقبل الجدل ان رادولف يرغب ببقائها معه الى الأبد!

لماذا تعتقد ان رادولف سيسأم منها يوماً ويطلق سراحها؟ لماذا ظنت انه كغيره من الغجر لا يستقر مع امرأة واحدة بل يبحث دائما عن صبية تؤمن له دفء الحب وحرارة العاطفة؟ فهذا النوع من الرجال لا يرى في المرأة الا جانب المتعة والعبث دون ان يفكر في الامور الاخرى السامية كبناء العائلة وتربية الاولاد...

غريب كم ان رادولف مختلف بجانب من طباعه عن عوائد الرجال من قومه!

بادر الغجري الى السؤال:

- أما زلت مصممة على الفرار؟

أجاب المرأة بكل عزم:

- بالطبع، وماذا تتوقع مني غير ذلك؟

أشاح راودلف بوجهه كي لا تظهر انفعالاته وصرح بصوت مرتجف بعض الشيء:

- برغم البداية السيئة يمكننا أن نعيش معاً حياة جميلة.

توقف ليستجمع افكاره ثم أضاف:

- اليوم مثلاً سار كل شيء على ما يرام.

- لا أعتقد أن يوما واحدا من التفاهم يكفي لبناء حياة مشتركة.

- كل طريق تبدأ بالخطوة الاولى، فلنعتبر اليوم خطوة أولى ومثالا نحتذيه في تصرفاتنا.

لم تصدق لين ان هذا الرجل الذي يتكلم أمامها هو راودلف. أين التعالي والغطرسة في صوته؟ أين نظراته الساخرة ونبرته المتهكمة؟ من عادة راودلف اعطاء الاوامر ورؤيتها تنفذ، لكنه الآن يطلب من زوجته العيش معه لا بل هو يتوسل اليها!

- اسمع يا راودلف، أنا لا أنوي أن امضي حياتي متنقلة من مكان الى آخر لأني أحب الاستقرار. أضف الى ذلك اني لست مغرمة بك وتبعا لذلك يغدو طلبك غير قابل للاستجابة.

لم يعلق الغجري على رفضها بشيء بل غير الموضوع وانصرف الى الأكل بعد ان ملأ طبقا لزوجته وصب لها بعض الشاي. جلس الزوجان بعد الأكل يتأملان مياه البحيرة الرقراقة والشمس تغمر المكان بدفئها وطنين النحل يملأ الجو بهجة وفرحاً.

ماذا يطلب الانسان أكثر من ذلك ليكون مسروراً؟ ماذا ينشد ليشعر بالأمان والسلام؟ وهذا ما شعرت به لين فتداعت جدران الحقد الفاصلة بينها وبين زوجها. وشعرت بأن هذا الرجل قريب منها ولم يعد ذلك الشخص الشرير الذى كرهته الى حد لا يوصف. نظرت الى وجهه فلم تستطع انكار جماله الباهر وملامحه النبيلة المتناقضة مع انتمائه الغجري. يزيده هذا التناقض غرابة وفرادة لا يملكها غيره من الرجال. جعله ذلك أميراً في ثوب فقير، نبيلاً في

ملامح رجل اسمر عانى شظف العيش وخبر مصاعب الحياة.

لم تر لين في حياتها أحجية بهذا الغموض، وسامة متعالية في رجل فقير ينتمي الى قوم يفتشون عن اللقمة ليسدوا رمقهم، يعيشون متشردين بلا وطن ولا هدف.

التفت راودلف اليها فوجدت صعوبة في ازاحة نظراتها المأسورة ببريق عينيه السوداوين.

- متى سنصل مقصدنا؟

- أمامنا الكثير من الأميال بعد.

لم تقنع لين بهذا الكلام فقالت:

- هذا ليس بجواب، الا تستطيع ان تكون أكثر وضوحاً؟

تناول راودلف الفاكهة وأجاب:

- أعتقد أنه علينا اجتياز حوالى الخمسين ميلا.

ناولها تفاحة حمراء سائلا:

- أتريدين تفاحة؟

- بكل سرور.

- على الرحب والسعة يا عزيزتي. ما رأيك بمزيد من الشاي؟

استغربت لين كل هذا الانتباه وكل هذه الرعاية من زوجها، لاسيّما أنها خذلته باعلانها عن رغبتها في عدم العيش معه واصرارها على الفرار..

- لا، شكراً.

- فلنجمع اغراضنا إذن لنكمل الرحلة.

تنهدت المرأة وتمتمت شاكية:

- أود لو أعرف سبب رحلتنا.

- كوني على ثقة بأن السبب وجيه جداً.

أخذ راودلف يجمع الاغراض في حين توجهت لين الى البحيرة لترمي في مياهها بقية الشاي وذكرى ساعات بديعة أمضتها في هذا المكان حيث لم تفكر مرة واحدة، خلافاً للسابق، بايجاد طريقة

للفرار!

في السيارة شاركها رادولف تساؤلها عندما قال:

- أرى انك لم تحاولي الهرب اليوم!

- لم أجد فائدة في ذلك لأنك بدون شك أسرع مني في العدو، فلو حاولت شيئاً لأمسكتني بسهولة.

- هذا صحيح ولكن مع ذلك لاحت لك عدة فرص للإفلات، خصوصا عندما كنت احضر الطعام من السيارة.

- لقد وزنت جميع هذه الفرص ووجدتها خاسرة لأنني كنت سألقى عقابا شديداً على فعلتي!

لاحظت لين انه انفعل لما سمع وان لم يعلق على الكلام بشيء. ظل رادولف صامتاً حتى وصلا أخيراً الى طريق ضيق مقطوع يقوم في نهايته مخيم للغجر.

- سنتوقف هنا يا حلوتي.

- أهذا هو المكان الذى نقصد؟

- كلا، هذه مجرد محطة قصيرة في رحلتنا.

أوقف السيارة قرب احدى العربات وأضاف:

- ابقي هنا فلن أغيب أكثر من بضع دقائق.

وأخيراً وجدت لين فرصة ذهبية لتفلت من قبضة خاطفها فهزّت برأسها موافقة وغرقت في مقعدها تنتظر ابتعاد زوجها عن السيارة.

تقدم منه بعض الرجال السمر وغرق الجميع في محادثة هامة لم تسمع لين منها شيئاً لأنها كانت بعيدة عن موضوعها. ثم تحسست مقبض باب السيارة وأدارته على مهل، ونظرت الى زوجها الذي أدار نظره لها. بعد ذلك لمحت الرجال يرمونها، بين لحظة وأخرى، بنظرات فضولية فتوترت أعصابها وصارت خائفة من الاقدام على خطوة الفرار. شيئاً فشيئا فترت همتها ورأت ان لا فائدة من المحاولة لأن الجميع في المخيم سيكونون على أعقابها ويعيدونها سجينة. لذلك أعادت اقفال الباب كما فتحته بهدوء وفتحت زجاج النافذة لتسترق

السمع. فأصيبت بالخيبة لأن الحديث كان دائراً باللغة الغجرية. لا بد ان لما يدور بين هؤلاء الرجال أهمية قصوى بالنسبة لزوجها وبالنسبة لها. عندها أطل رجل عجوز انضم الى الرجال وتحدث بالانكليزية فتمكنت من سماع ما قال:

- انه لم يأت يا رادولف. اتعظ ودعه وشأنه لأنك تعذب نفسك بدون جدوى. لقد نصحتك مرات عدة... قاطعه رادولف فنظر العجوز الى السيارة وأكمل كلامه بلغة أهل قومه حتى لا تفهم لين شيئاً.

بعد قليل عاد رادولف الى السيارة غاضبا وفي الوقت نفسه عاقدا العزم على الوصول الى هدفه السري.

انطلق بالسيارة دون ان يكلف نفسه مشقة الالتفات الى زوجته ولم يحرك ساكناً الا عندما انتبه الى ان السيارة تحتاج الى الوقود. فقد استنفذت الرحلة محتويات الخزان الذى ملأه رادولف في الليلة الماضية. عاد الغجري أدراجه الى المخيم وأشار الى أحد الرجال كي يأخذ السيارة ويملأ خزانها بالوقود.

ترجلت لين وهي تتحسر على فرصة أخرى ضائعة للافلات. اذ انها خططت للاقلاع بالسيارة فيما رادولف منشغل في المحطة بتعبئة الوقود ودفع المال. أما الان فها هي معه في المخيم ويدها حبيسة يده على سبيل الاحتراز ومنعاً لأية محاولة فاشلة تبدر منها.

عندما أخرج رادولف المحفظة من جيبه ليعطي المال للغجري لاحظت لين أن فيها مبلغاً محترما، فقالت:

- يبدو أن لديك الكثير من المال...

غابت رنة المزاح من صوت رادولف هذه المرة عندما أكمل:

- ... المسروق.

كان بلا شك منشغل الفكر بما أخبره هؤلاء الرجال فلم ينصرف الى المزاح والمرح كعادته. من الواضح انه يتنقل من مكان الى آخر بحثاً عن أحد فهذا ما استنتجته لين بسهولة من كلام أولاف وكلام

الرجل العجوز. ولكن هذا لا يفسر اللغز كاملاً بل يطرح سؤالاً جديدا: من هو الشخص الذي يبحث رادولف عنه؟ وهذا السؤال يستتبع أسئلة كثيرة منها: لماذا يبحث زوجها عنه وماذا سيفعل عندما يجده... ومن الجلي أيضا أنه ليس من السهل العثور على هذا الشخص كما أنه ليس من السهل أن يستسلم رادولف ويكف عن البحث عنه. فهو مستعد لأن يجوب ايرلندا عرضا وطولا ليصل الى ضالته المنشودة. وما زاد الامر غرابة كون رادولف يملك المال الكافي ليغطي نفقات رحلاته المكلفة... ولكن ما يبعث الرجاء في نفس لين هو ان الفرصة المؤاتية للفرار لا بد آتية في احدى هذه الرحلات. لأن حراسة زوجها مهما كانت دقيقة لن تستطيع منعها من الهرب.

كانت الشمس قد بدأت بالأفول عندما وصل الزوجان الى المخيم المقصود، وبريق النجوم شرع ينفذ من بين أغصان الاشجار الكثيفة. أقيم المخيم في اطار طبيعي خلاب في حضن سهل فسيح محاط بجبال عالية ومروي ببحيرات متناثرة هنا وهناك تتجمع فيها مياه الشتاء المتدحرجة من القمم الشاهقة.

كالعادة، هجم الرجال والنسوة والأطفال لملاقاة رادولف مرحبين به أشد ترحيب بلغتهم الغجرية. تكلم رادولف فنظر الجميع باعجاب الى لين وهم يطلقون عبارات الدهشة والفرح. ففهمت المرأة انه شرح لهم أنها زوجته. بعد ذلك توجه واياها الى احدى العربات الخالية وكأن رادولف كان منتظرا هنا وأعدت العدة لاستقباله.

بعد ان أصبحا في الداخل طرحت لين السؤال الذي يقلقها:

- الى متى سنبقى هنا؟ أحس وكأني سلعة يتفرج عليها الجميع في معرض!

- سيعتادون عليك ويعتبرون وجودك طبيعياً مع الوقت.

- ألم يفاجئهم أمر زواجك؟

ابتسم رادولف مجيباً:

- لم يفاجئهم بل أدهشهم.

- أيدهشهم ذلك لأنك كنت معروفا باصرارك على عدم الزواج؟

- تماما.

- من المؤسف انك رجعت عن مبادئك وتخليت عن اصرارك!

امتلأت نفس لين بالحزن والخيبة من جديد. فاليوم الممتع الذى مر أصبح جزءا من الماضي والذكريات، وها هي الآن تعود الى الوحدة والضجر. أعادت اليها العربة الجديدة دور السجينة الذي لعبته منذ ان اختطفها رادولف في ذلك اليوم المشؤوم وأجبرها على ان تصبح زوجته. لكن ما يخفف من وطأة المرارة هو كون العربة الجديدة في حالة أفضل بكثير من العربة السابقة، فالجديدة أحدث وأنظف.

لاحظ رادولف حزنها فسأل بقساوة:

- ما بك الآن؟ أنا لم أر في حياتي انساناً متقلب المزاج مثلك!

- وماذا عن مزاجك؟ اليس حادا وقاسيا كمزاج وحش مفترس؟

- لم أقل ان طباعك حادة بل متقلبة فحسب، ساعة أراك فرحة وساعة حزينة!

أجال طرفه في العربة وأضاف:

- انظري حولك، ألا تجدين أن العربة نظيفة ومريحة؟ سأجلب حقيبتك من السيارة لتضعي ثيابك في الخزانة. أحضر رادولف حقيبتي زوجته وحقيبة ثالثة وضع فيها ثيابه. جلست لين تراقبه بانبهار يخرج ثيابا أنيقة من حقيبته لا يملكها الا الاثرياء وأصحاب الذوق الرفيع.

أدرك الغجري أن زوجته فوجئت بما يملك فقال:

- تركتك نائمة البارحة وسرقت كل هذه...

قاطعته لين بحدة غير آبهة بالنتائج:

- لا تحاول تفسير أي شيء فأنا لست مهتمة أبداً بمصدر هذه الملابس!

ابتعدت عنه ووقفت تحدق في قمم الجبال المختبئة وراء حمرة

الشفق. تمنّت لو تكون هذه اللحظة جالسة هناك حيث الهدوء والبعد عن الضجيج وكذب حضارة العالم. تجمعت دموع الغضب في عينيها، غضب أثاره فشلها وخيبتها المرة.

- أنصحك يا لين بألا تثيري أعصابي، فالنتائج معلومة.

استدارت المرأة حانقة ويداها على خصرها قائلة:

- أتهددني من جديد؟ هيا افعل ما فعلته في الامس! فهذا أفضل ما يتوقع من... من متشرد حقير!

توقف رادولف عن توضيب ثيابه ونظر اليها والشرر يتطاير من عينيه.

- ألن تكفي عن التحقير بي؟ أتحاولين ارغامي على استعمال العنف معك؟

تقدم منها وأمسك بكتفيها وقال:

- تعلمي لجم لسانك الطويل فأنا لست مستعداً لتحمل الاهانة تلو الاهانة!

هزها بعنف ولكنه لم يتماد كما فعل في الليلة الماضية بل ضبط أعصابه وسرعان ما تركها. تحسست لين آثار يديه القويتين على كتفيها وتساءلت كم من الآلام ستتحمل قبل أن تفلت من قبضته.

- من الافضل ان تضعي ملابسك في الخزانة لأننا قد نبقى هنا بضعة أيام.

- والى اين نذهب بعد ذلك؟

تنهد رادولف وأجاب:

- لا أعلم.

يا له من تبدل! من غجري عنيف الى رجل هادىء تعب ومثبط العزيمة. انتقت لين كلماتها بدقة عندما تكلمت:

- أتبحث عن شخص معين؟

لم يكن رادولف على علم أنها سمعت كلام العجوز وسمعت قبل ذلك كلام أولاف. فرمقها بنظرة متسائلة:

- ما الذي يجعلك تظنين أني أفعل؟

- انه التفسير الوحيد الذي وجدته لهذا التجوال المستمر.

- فهمت... سأخرج بعد حوالى الساعة وأطمئنك بأن العربة محروسة جيداً فلا تحاولي الهرب.

قال رادولف ذلك بلهجة عادية كأن الموضوع ليس ذا أهمية مما أثار لين فصرخت:

- وكم ستغيب؟ لا أستطيع تحمل الوحدة! سأفتح النافذة وأملأ الدنيا صراخاً! لا لن استطيع الصمود...

- لا تكوني مأسوية بهذا الشكل المسرحي فلن أغيب عنك طويلاً.

زادت ثورة المرأة وهددت:

- سأحطم النوافذ، سأحطم كل شيء!

أطلق الغجري زفرة عميقة فأدركت لين أن في ذهنه ما يشغله كفاية ويجعله يغني عن مشكلة جديدة تسبّبها له امرأة، فاستنتجت أنها اذا زادت الامر صعوبة وتعقيداً تخلى عنها وأطلق سراحها لينصرف الى حل مشكلته الاساسية.

هو بالطبع مشغول بالعثور على الرجل «الخفي»، فإذا مارست لين اللعب بأعصابه واثارته كلما سنحت لها الفرصة، ينفد صبره ويتخلى عنها. لا شك أنها ستدفع ثمن اغاظته كدمات وجروحاً ولكن ذلك لا يقاس بالبقاء في سجن الحياة الغجرية الى الأبد.

- لقد قلت لك إنني لن أتأخر.

وجد رادولف صعوبة في الكلام بسبب الارهاق الشديد، الذي لم تسببه ساعات القيادة الطويلة لأن بنيته القوية تجعله بمأمن من الارهاق الجسمي، بل مشكلته مستعصية تشغل روحه وعقله.

وجهت لين اليه سؤالا ليس في محله بل يهدف الى تأخير خروجه فقط:

- ألن تتناول طعاماً على الاقل؟

- ليس قبل أن أعود.

لم تكن المرأة جائعة بل حاولت بسؤالها أن تعيق ذهابه، لكنها أذعنت للأمر وجلست على كنبة تنتظر خروجه.

بدا رادولف مترددا في الذهاب. هل هو قلق عليها؟ فشعوره بالقلق واضح على وجهه. عندما فتح الباب ليخرج أعطاها نصيحة أخيرة:

- لا تحاولي شيئاً سخيفا يا لين لأنك لن تنجحي في الفرار.

- سأنجح يوماً.

لما نظر اليها بعينيه الماكرتين علمت لين أنه يخطط لما سيفعله بها عند عودته وتأكدت من نياته عندما سألها بخبث:

- أواثقة أنت من النجاح؟ سنرى مدى صلابتك عندما أعود!

- نعم. سأخرج من سجنك وساحمل معي أبشع الذكريات!

أدركت لين أن لعبتها ناجحة عندما رأت زوجها يعض على شفته السفلى ويده تشدّ على مقبض الباب. ستواصل حملتها على أعصابه في الغد لتصل الى غايتها.

عاد رادولف الى العربة في العاشرة فوجد لين نائمة على كنبة عريضة. استسلمت المرأة بسرعة الى النوم بعد أن وزعت ملابسها في الخزانة وألقت نظرة فاحصة على العربة الواسعة والنظيفة. دخلت الى المطبخ المرتب وحضرت بعض الشاي ثم جلست تحتسي فنجاناً في غرفة الجلوس قبل أن تدخل الى غرفة النوم بعد ان تأكدت من وجود الحراس اليقظين في الخارج يرصدون تحركاتها. لا بد انهم يتلقون المال من زوجها لقاء خدماتهم، مال وفير لا تعرف مصدره...

وقف رادولف يتأمل شعرها المتدلي كوشاح حريري على الكنف الغض وأحس بالألم يعصر قلبه، ثم تمتم في نفسه:

غجري متشرد، حثالة المجتمع...

توجه الرجل الى المرآة ينظر الى بشرته الداكنة وشعره الأسود القاتم المتشعث كنسيمات الجبال الصباحية. استدار لما سمع زوجته

تتحرك في كنبتها وتفتح عينيها لتشاهده أمامها.

عرف من اقفالها عينيها ومن الدموع المنحبسة وراء الجفنين أنها شاهدت الرجل المتوحش، البدائي.

- عدت أخيراً.

أقترب الغجري منها وسألها بحنان:

- أتفضلين وجودي على البقاء وحيدة؟

كذبت لين كي تجرحه امعاناً في ممارسة لعبة حرق الاعصاب.

- بالطبع لا! وجود شخص غير مرغوب فيه لا يشتهيه أحد!

أمسك بيدها وأجبرها على الوقوف ثم ضمها اليه بقوة.

- أنت تفقدينني أعصابي!

قاومته لين بعنف وهي ما تزال شبه نائمة، وفجأة تراجعت عندما لامست وجنتها الجرح في خده.

- أتخافين من جرح بسيط كهذا؟

تناول يدها ومررها على جرحه وأضاف:

- ستتالين قريبا من الدواء نفسه لأني احب معاملة الناس بالمثل.

أتستمر لين في توتير أعصابه؟ لا، لن يجدي ذلك نفعا معه. عليها الرضوخ لمشيئته والاذعان لاوامره لتخفف من وطأة نار هذا الجحيم.

عندما رفع رأسها الى عينيه رأت من جديد الحنان يملأ نظراته، رأت رادولف الخير يطغى على رادولف الشر ويتغلب عليه مؤقتاً في الصراع العنيف الدائر في نفسه. وأحست من واجبها مساعدة هذا الرجل كي يصل الى الأمان وتستقر شخصيته، ولكن ما السبيل الى مساعدته؟ لربما كان تجاوبها مع عناقه كفيلا بحل المشكلة وجعله يشعر بأنه موضع اهتمام.

وأخيراً جاءت اللحظة الحاسمة فقد جذبها رادولف اليه ليقبلها. أتقدم على خطوة التقارب أم تحجم عنها؟

وللأسف تغلبت غرائز لين على ارادتها وابتعدت عن زواجها الذي لم يرض بالهزيمة وجعلها تسدد الفاتورة بطريقة فظة...

بعد ان انقشعت غيوم المهانة والذل تمتمت لين بين الشهقات المتتالية:

ـ أكرهك وسأجعلك تدفع ثمن كل شيء غالياً في يوم من الايام.

لم تؤثر كلماتها في رادولف بشيء لأنها كانت موجهة الى الجانب السيء الذي تحدث عنه.

حملها بخفّة الى السرير ليكمل انتقامه وينهش من جمالها المستسلم نهشاً.

٧ ـ منزل على الشاطيء الذهبي

دام تنقل رادولف ولين من مخيم الى آخر مدة أسبوعين جابا خلالهما أنحاء واسعة من ايرلندا. قطعا الجبال والسهول، والبحيرات والانهار، والوديان والمراعي. . . ، ولو لم يكن هاجس الفرار ماثلا في ذهنها لاعتبرت لين نفسها سعيدة الى درجة لا توصف.

لم يقترب رادولف منها منذ أن صفعها المرة الاخيرة، حتى أنه كان ينام على كنبة ويترك لها السرير لتأخذ حريتها. صار يعاملها بكل لطف وعناية وان لم يخل الأمر أحياناً من كلمات جارحة تأتي رداً على زلات لسان تبدر من لين. لكن القضية لم تتعد الكلام لحسن الحظ.

حاول الغجري أن يظهر الجانب الحسن وبالتالي سحق شخصيته الشريرة المرعبة. وقد نجح لا في ازالة خوف لين فحسب، بل بانشاء

www.elromancia.com

علاقة ود بين الاثنين. فاضحت قوته خالية من البطش وسطوته بعيدة من الظلم. كما غاب عن لين الشعور بالأسى والمرارة اللذين رافقاها كظلها في أيام اختطافها الاولى. ولكنها لم تكف مع ذلك عن الكلام على الهرب في أول فرصة تلوح لها.

وفي الحقيقة صارت لين مقتنعة تقريباً بحياتها كزوجة لغجري متجول. لا سيما وان رادولف لا يترك مناسبة الا ويذكرها بأن مكان المرأة هو الى جانب زوجها. لكن ذلك لا يعني شعوراً بالاستقرار بل كانت المرأة الشابة في حالة انتظار وتوقع دائمين معتبرة أن عثور زوجها على من يبحث عنه سيغير مسار حياتها.

لم يحط الزوجان حتى الآن رحالهما في مكان معين بل استمرا في الطواف من مطرح الى مطرح، يشغلان العربة الشاغرة، ويحلان ضيفين على قوم الزوج كان من عادات الغجر ابقاء عربة مخصصة لضيوف غير متوقعين يأتون على حين غرة كما يفعل رادولف. لكن لين مخطئة في تصورها لأن رادولف كان منتظرا أينما حل وكانت تخلى له عربة خصيصاً قبل وصوله بساعات قليلة. ويعود اليها سكانها الاصليون فور رحيله.

سألت لين زوجها يوماً وهما في طريق العودة الى كيلارني بعد أن زارا ثلاثة مخيمات مكثا في أحدها يومين وفي الآخرين بضع ساعات.

- الى متى سنظل نتنقل هكذا؟

- أعتقد أننا سنكون في بيتنا بعد حوالى الأسبوعين.

أوقف رادولف السيارة الى جانب الطريق وأخرج قنينة شراب البرتقال من صندوق السيارة ليتناولا كوبين منعشين، في حين كان تفكير لين يعمل جاهداً لاستيعاب كلمة «بيتنا». عن أي بيت يتكلم زوجها؟

- أتعني أننا سنستقر في مخيم معين؟

قالت لين ذلك وهي تهز رأسها وتفكر بوجودها في مخيم للغجر وبالحياة المتعبة التي تنتظرها. وبرغم ذلك فهي تقر أنها لا تتصور

نفسها تعيش بدون رادولف من دون أن تعلم السبب. صارت الامور مشوشة في ذهنها فمنزلها ومجتمعها الحقيقيان يقومان في وطنها انكلترا حيث تحلم بالعيش في منزل صغير لتبني عائلة صالحة يشاركها في طموحها رجل تحبه أو على الاقل ترتاح له وتعيش وادعة مطمئنة. طالما عادت صورة توماس الى ذهنها في الايام الماضية لكن رادولف كان مصيباً عندما قال ان توماس لا يناسبها، فهو رجل طيب لكنه ليس خلاقاً مما يساهم في زيادة الرتابة والروتين في حياتها التي علمت من خلال تجربتها الجديدة مدى سخافتها، وانسيابها المجرد من أي نكهة ومعنى.

قطع رادولف حبل افكارها بقوله:

- لا بد أن ننتهي من الطواف ونستقر.

اعترضت لين بلهجة ناعمة قريبة من التوسل:

- لا استسيغ فكرة العيش في مخيم، الا نستطيع السكن في مكان آخر؟

رماها زوجها بنظرة ملؤها الحيرة والتردد كأنه يخاف من البوح لها بأشياء يكتمها في نفسه على مضض. لذلك اختار كلماته بدقة وقال بتمهل:

- أفهم من كلامك انك أصبحت مقتنعة بالعيش معي؟

هربت لين من نظراته وأخذت تفكر لماذا لم تعترض على ذلك بشدة كما كانت تفعل في السابق. وبعد أن وزنت الامور في رأسها وتراءت لها حياتها المقبلة وما يمكن ان تعانيه في المجتمع الغجري من عبودية تصيب المرأة وتذلها، صاحت بأعلى صوتها:

- لا! لم اقتنع بذلك! سأستمر في محاولة الفرار وسأنجح في ذلك! انت لا تستطيع مراقبتي الى الأبد، لا تستطيع أن تراقب تحركاتي لسنوات وسنوات حتى. تصبح عجوزين هرمين!

ارتفعت حدة نبرة لين حتى جفل رادولف منها وزادت:

- أرجوك دعني أمضي في سبيلي، أرجوك دعني أعود الى بيتي!

بكت المرأة بمرارة وغشي كيانها اضطراب كبير فأخذت ترتعش حتى أوقعت كوب العصير على ثوبها.

تناول الغجري الكوب من يدها وانتظر حتى هدأت، وبالفعل عادت لين الى هدوئها السابق وتكلمت بكل واقعية:

- لنعقد اتفاقاً مثمراً لنا نحن الاثنين. تعطيني حريتي مقابل سكوتي عن حادث الاختطاف وتعهدي بألا اطلع احداً على ما جرى.

بلعت لين ريقها لتزيل الثقل القابع في حلقها وأعصابها الثائرة تجعل منطقها مغلوطاً، وفكرها شاردا ومشوشاً. لم يعد شيء في ذهنها واضحاً. وأحست برغبة في الصراخ عندما مرت أمامها الصور متدافعة، صور الحرية والعودة الى الوطن، صور رادولف الطاغية وسطوته القاسية تطردها صور طيبته ولطفه اللامتناهي. ودار في خلدها صراع قاس بين الحياة مع رادولف والحياة بدونه، فالاولى رحلة لا تنتهي بين المخيمات حيث شظف العيش، والثانية حلقة مفرغة تبحث فيها عن سعادة تائهة.

برزت الحقائق من بين غيوم عقلها المنقشعة. وعجزت لين عن الاختيار فلم تجد الا صرخة صادقة تطلقها من أعماقها:

- ساعدني يا الله!

- لين ما بك يا عزيزتي؟ بالله عليك لا تفعلي هكذا بنفسك!

لم تنبس المرأة ببنت شفه بل نظرت الى الغجري لا تصدق ان ما يختلج في قلبها حقيقة. همست في نفسها:

- لا، هذا ليس صحيحاً، لا يمكن ان يكون صحيحاً...

تكلم رادولف ثانية لكنها لم تسمع شيئاً لانشغالها بالحقائق الجديدة. سرت في جسمها رعشة قوية وارتجفت بشدة ثم سقطت بين يدي زوجها

- لين، ما بك؟ هل أنت مريضة؟

كان صوته ناعماً ينم عن قلق عميق. لكن لين ليست مريضة بل

هي في حالة أخطر من ذلك. رفعت رأسها وكأنها تخرج من الغيبوبة، ثم حدقت في الرجل وتساءلت عما يمكن ان تكون ردة فعله لو أطلعته على ما اكتشفت لتوها. أيستقبل الخبر بفرح أم يقول متشفياً: لقد وقعت في غرام غجري متشرد إذن! وهكذا لن تتركيني بعد الآن يا امرأة لأن حبك لي يجعلك أمة خاضعة!

لن تخبره بذلك أبداً! ولن يغير الوضع الجديد من تصميمها على الهرب لأنها لا تنوي قضاء حياتها مع الغجري برغم حبها القاتل لرادولف. لن تستطيع رؤية أطفالها يترعرعون في مخيم وسط القذارة وبعيداً عن المدرسة الصالحة والبيئة الصالحة. ستجعل العقل يسيطر على العاطفة وتحكم المنطق ليسحق الحب.

لما عادت الى التفكير برادولف من جديد عاد التشوش والبلبلة الى ذهنها. لقد استنتجت في السابق أنه يملك شخصية مزدوجة وقالت أنها لو استطاعت ابقاء جانبه السيء بعيداً لاستطاعت تمضية أيام حلوة معه. وفي الحقيقة أنه كان انساناً رائعا خلال الاسبوعين الفائتين فهو عاملها بكل رقة ولطف، حتى أنه لم يحاول تقبيلها مرة...

لقد كبح جماح غرائزه لاسعادها وقدم مصلحتها على مصلحته دون أي أنانية أو حب للذات.

أي رجل هو هذا؟ لا تستطيع لين تحمل العيش مع رجل غامض الى هذا الحد. وان تكن تصرفاته الاخرى مقبولة ولائقة.

نفذ صوت رادولف من خلال أفكارها كالنور يتسلل بخجل من بين طيات الضباب:

- سألتك إذا كنت مريضة.

- أنا بخير الآن.

قالت لين الحقيقة لأنها بدأت تشعر بالتحسن مع أن أفكارها ما تزال مبلبلة. نظرت الى وجهه فكادت تقسم أنه ليس غجرياً، لا يمكن ان تكون هذه الوسامة الراقية في غجري...

غيرت لين الموضوع فجأة وسألته عن هوية الشخص الذي يبحث عنه. جفل رادولف لسؤالها وقال:

- ألم تقولي سابقا أني أبحث عن شخص وبررت استنتاجك هذا؟

- قلت ان هذا هو التفسير الوحيد لتنقلك الدائم.

أطرقت لين قليلا وزادت:

- سأكون صريحة معك هذه المرة.

- تفضلي.

- سمعت الرجل العجوز يتحدث اليك عن رجل لم يأت الى المخيم وينصحك بألا تكمل البحث عنه.

فكرت لين بأن تذكر كلمات أولاف أيضاً لكنها عدلت لأن ذلك ليس ضرورياً.

- لم تخبريني بذلك في المرة السابقة.

- تعني عندما قلت لك انك تبحث عن أحد ما؟ لا فقد ظننت أنك تتضايق لو عرفت أني كنت استرق السمع.

حاول رادولف ان يبتسم وقال بعد أن غير وجهة الحديث:

- أطلعتني الآن على شيء يضايقني. ألم تخافي من إثارة غضبي ؟

- لم أعد أخاف منك.

- قولي بصراحة يا لين، هل أنت أسعد الآن مما كنت عليه...

توقف فجأة محاولاً ايجاد الكلمات المناسبة لانهاء السؤال، لكن دفعة من الشجاعة أتت لين فأكملت عنه:

- مما كنت عليه عندما كنت ترغمني على مشاطرتك السرير؟

فوجيء الغجري لصراحة زوجته ولكنه كتم شعوره بذكاء.

- أحسنت فهذا ما كنت سأقوله.

- لست سعيدة بل راضية.

ان تردّد لين وعدم ثقتها بما تقول يضرب بهما المثل. فلماذا تنكر أنها طالما نظرت الى يديه القويتين خلال الاسبوعين الفائتين وتذكرت مداعباتهما ولمساتهما الجذابة وتمنت لو يعيد الكرة؟ أهي ترغب فيه؟ ولم

لا فهي تحبه. الحب... احتقرت نفسها لأنها وقعت في حبائله لمجرد أنه كان ودوداً معها في الايام الماضية، كرهت ضعفها وسرعة ذوبانها في بحر العاطفة.

ولكن هل صحيح ان شعور الحب لم يبدأ الا منذ وقت قصير؟ خصوصاً وان لين تعترف أنها وجدت الغجري جذاباً منذ رأته...

- وهل يرضيك عيشنا بهذه الطريقة حتى نصبح عجوزين هرمين؟

- سؤالك غير مجدٍ فأنا لا أنوي قضاء حياتي معك.

سمعت لين زوجها يتنهد بدل أن يغضب كالعادة وتساءلت اذا كان سلم بالامر الواقع واقتنع بأن المشاركة في الحياة الزوجية تأتي نتيجة الرضى المتبادل لا القهر والاكراه.

بعد دقائق انطلق رادولف بالسيارة صامتاً وملامحه قاسية كالحجر، ينظر أمامه كأن عينيه متجمدتان لا حياة فيهما. وغرقت لين بدورها في التفكير بمشاكلها وبالحل الأنسب الذي يخرجها من هذا المأزق من دون أن تسبب أي ألم أو أذى لزوجها.

توقف الغجري في أحد المخيمات لكنه لم يمكث هناك سوى بضع دقائق. وأبلغ زوجته بعد ذلك أنهما سيمضيان الليل في منزل يملكه صديق له يقع على شاطىء البحر.

- ومن هو هذا الصديق؟

- لا ضرورة لأن تعرفي.

- انه ليس غجرياً بالطبع.

- لي أصدقاء كثيرون من غير الغجر يا عزيزتي.

- أهناك أحد في المنزل؟

أجاب رادولف بنبرة ناعمة وفي صوته تلك الرنة الموسيقية القريبة من اللهجة الايرلندية:

- المنزل خال فهو مخصص لقضاء العطلة الصيفية. أنا واثق من أنه سيعجبك كثيراً فهو مجهز بكل شيء برغم بعده عن أي تجمع سكني.

- أتعني أن المنزل منعزل؟

- يبدو أنك فكرت بالهرب يا حلوتي! لم أكن لأصطحبك الى هناك لو لم يكن المنزل منعزلاً عن بقية العالم.

- أيستعمل المنزل لأغراض سياحية؟ فالبعض يحب تمضية وقت فراغه بعيداً عن الناس.

ضحك رادولف وعلق:

- استعملت ديباجة بارعة لاخفاء خيبتك.

- ماذا تعني؟

- لا تدعي الغباء يا لين. ظننت أن وجودك في منزل على شاطىء البحر سيسهّل الفرار، ففي المخيمات هناك من يراقبك ليلاً نهاراً.

- الفرار من مخيم للغجر هو في الحقيقة مستحيل، أما بالنسبة لاستنتاجاتك الاخرى فانك مخطىء لأني صرت أعرفك كفاية كي أدرك أنك حاضر أبداً لاحباط أية محاولة أقوم بها للافلات. جل ما في الامر أني استغرب وجود منزل مخصص للعطلة في مكان منعزل كما فهمت من كلامك.

- لقد بنى صديقي هذا المنزل منذ أربع سنوات حتى يهرب من همومه ويرتاح هناك من عناء أعماله المتراكمة.

عجبت لين لكلام زوجها فكيف يتوصل غجري الى مصادقة شخص ثري يبني منزلاً لمجرد حبه الاختلاء بنفسه!

- لا بد أن صديقك ثري جداً! أنا... لم أعد أفهم شيئاً. آه لو تخبرني المزيد عن نفسك فلربما صارت الامور بيننا مختلفة.

ضغط رادولف على المكابح حتى كاد رأس لين يرتطم بالزجاج الامامي. نظر اليها بدهشة وسألها:

- ماذا تعنين بمختلفة؟

هزت المرأة رأسها عاجزة:

- لا أستطيع التفسير.

وبالفعل لم تكن تستطيع التوضيح لأنها هي نفسها لا تعلم ماذا

تقصد تماماً من كلامها.

انطلق الغجري بالسيارة، وقاد لساعات في طرق منعزلة تتعرج بين الهضاب الخضراء حتى انعطف أخيراً في زقاق ضيق لا يعرفه أحد وليس موجوداً على الخريطة كما أبلغ زوجته.

كادت لين تلهث عندما رأت جمال الطبيعة حولها، صخور الشاطىء ورماله الذهبية المترامية كأنها لا تنتهي... لا يزورها سوى طيور النورس تبحث عن رزقها بعيداً عن فضول الانسان.

استمر سيرهما في هذا المكان النائي حتى وصلا الى طريق صخرية لم تعرف طعم الاسفلت، فأخذت السيارة تثب على الحجارة وراكباها يعانيان صعوبة المسلك حتى بلغا أخيراً بوابة عتيقة منحوتة في الحجر تدل على أن المنزل بني على انقاض بناء قديم. وخلف البوابة والسور المحيط بالارض نمت أشجار خضراء من مختلف الانواع، وتوزعت أزهار وورود زاهية هنا وهناك تضفي على الجو رونقاً وضياء.

كانت أشعة الشمس ما تزال ساطعة ترسل ألوانها على المنزل الابيض المحاط ببساط من العشب الاخضر وسجادة من الازهار.

انعقد لسان لين من الدهشة وصعقت لجمال هذه البقعة الطاهرة التي لم تدنس عذريتها أرجل الانسان الشره.

قالت وهي تترجل من السيارة:

- آه ما أروع هذا المكان!

أجالت طرفها بين الجبال الشاهقة والبحر المترامي الاطراف في زرقة يخالطها بياض الزبد. عجيبة هي طبيعة ايرلندا في جمعها سمو الجبال ووداعة البحر في لوحة واحدة.

- كيف وصل صديقك الى مكان كهذا؟

مرت لحظات تردد قبل أن يجيب زوجها:

- ان عائلته تملك الارض منذ عدة أجيال وقد أقامت فيها مزرعة كبيرة

أشار بيده الى بقايا البناء المتهدم وقال:

- كان هذا بيتاً لعمال المزرعة. وجد صديقي المكان مناسبا لبناء منزل يرتاح فيه عندما يحتاج الى الابتعاد عن عالم الاعمال- والضجيج.

- وماذا يعمل صديقك؟

- لديه أملاك كثيرة.

جاء جواب الغجري مقتضباً يحذر لين من التمادي في طرح الاسئلة، ويعلمها بأنه ما عاد يرغب في التوغل في الموضوع أكثر.

دخل الزوجان الى المنزل الفخم حيث الاثاث الوثير والسجاد العجمي والستائر الحريرية الفاخرة. وأعجبت لين بالثريات والكريستال والآنية الفضية وتماثيل العاج والبرونز.

كما لفت نظرها الديكور الذواق الذي نظمت على أساسه غرفة الجلوس، ثم هزت رأسها مدركة أن هذا المكان ليس لغجري وظنت أن رادولف ليس صديقاً لمالكه كما ادعى، بل هو يدخل اليه خلسة عندما يعلم أن أصحابه غائبون. ولكن من أين أتى بالمفتاح؟ الجواب على ذلك ليس مستعصياً لأن هناك نوعاً من المفاتيح الخاصة يناسب جميع الاقفال. والغجر مرشحون اكثر من غيرهم لاقتنائهم هذا النوع.

أعادها صوت رادولف الى الواقع عندما بادرها بالسؤال:

- بماذا تفكرين؟

- كنت أفكر بكل هذا المال المهدور على بيت شبه مهجور.

لم يقنع جواب لين زوجها الماكر فصحح قولها:

- لا يا عزيزتي، كنت تقولين في نفسك كيف يمكن لغجري حقير أن يتعرف الى أصدقاء أثرياء كصاحب هذا المنزل؟

مرة جديدة عادت مسحة المرارة الى صوت رادولف. ولكن لين لم تشعر بالشماتة لذلك بل انزعجت وحاولت تغيير وجهة الحديث.

- أهناك حمام في هذا المنزل؟

- وهل يعقل الا يكون هناك حمام؟ تعالي لأدلك إليه.

بعد ذلك أراها غرف النوم المرتبة والنظيفة كما دخلا الى المطبخ الواسع والمجهز بأحدث الوسائل وأغلاها.

- لا بد أن احداً يأتي الى هنا باستمرار ليبقى المنزل نظيفاً.

هز رادولف برأسه موافقاً وهو يشير الى بقعة خضراء لا تبعد كثيرا عن البيت.

- هناك مزرعة صغيرة خلف تلك الاشجار تملكها أرملة في الخمسين كلفها صديقي المجيء يومياً للاهتمام بالمنزل.

- يومياً؟

- ستأتي في الصباح الباكر وهكذا ستتأكدين من أني لست متسللاً، أليس هذا ما يشغل بالك؟

احمر وجه لين لملاحظاته الجارحة والصائبة لكنها رأت في مجيء هذه المرأة عملاً يحتمل أن يساعدها على الهرب.

- لا تبني آمالاً كاذبة فالسيدة وايت تحبني كثيرا وتنفذ مشيئتي.

- يبدو أن لديك الكثير من المحبين.

تجاهل الغجري ملاحظة زوجته وقال:

- المياه ساخنة الآن اذا كنت ترغبين في أخذ حمام. لقد أنبأت السيدة وايت بمجيئنا وأمرتها بتسخين الماء.

حدقت لين فيه بذهول مطبق.

- أنبأت السيدة... ولكن متى وكيف فعلت ذلك؟

ضحك رادولف وأجاب:

- طلبت الى أحدهم في آخر مخيم توقفنا فيه أن يتصل بها هاتفياً.

- فهمت.

تظاهرت لين بالفهم لأنها مهتمة الآن بالدخول الى الحمام والاستلقاء في المياه الساخنة لترتاح وتنعم بهذا الترف الذي حرمت منه منذ مدة طويلة. ولما همت بدخول الحمام لتخلع ثيابها وجدت الباب مقفلاً.

- ستخلعين ثيابك في غرفة النوم قبل أن أعطيك مفتاح الحمام.
- لماذا هذا التعقيد؟
- لأني أود مساعدتك في ذلك يا حبيبتي.
- أنت تفكر في كل شيء.
- علي أن أفكر في كل شيء والا أفلت زمام الأمور من يدي.

أمضت لين وقتاً طويلا في غمرة المياه الساخنة. ولما عادت الى غرفة النوم كانت هادئة ومرتاحة الاعصاب.

جلس رادولف على السرير يتأمل جمال زوجته في قميص النوم الذي أخرجه لها من احدى الخزانات. نظر الى ساعة كبيرة معلقة على الحائط وقال:

- يظهر أنك تمتعت كثيرا بالماء لأنك أمضيت ما يقارب نصف الساعة في الحمام.

علقت لين بجدية:

- أنا حقاً آسفة لتأخري.
- لا عليك يا طفلتي فأنا كنت مشغولاً باجراء بعض المكالمات الهاتفية.

مخابرات هاتفية... هذا يعني أن ثمة هاتفاً في المنزل. حاولت المرأة أن تتكلم بلهجة عادية حتى لا يتنبه زوجها لحيلتها.

- ألا يمانع صديقك استعمالك لهاتفه؟
- لا أبداً.

دخل رادولف بدوره الى الحمام تحت أنظار زوجته المتسائلة عن ماهية مكالماته التي ليست بالطبع موجهة الى نحيم غجري، لأن هذه الامكنة لا تعرف الهاتف.

انتظرت بضع دقائق حتى سمعت صوت المياه وتأكدت من أن زوجها لا يراقبها، ثم خرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها وشرعت تبحث عن مكان الهاتف دون جدوى. لا عجب في أن يخفيه رادولف الداهية لأنه مدرك أن زوجته لن تكون غبية وتدع فرصة

استعمال الهاتف تفلت من يدها وتضيع هباء.

تخلت لين عن البحث وجلست على طرف السرير تفكر في طريقة حديث زوجها عن الهاتف، وكأنه يتعمد خلق مواقف تجعل زوجته تطرح على نفسها المزيد من الاسئلة حول حقيقته. تمنت لو تجد سبيلا كي تقنعه بالاجابة على التساؤلات الدائرة في ذهنها والتي تسبب لها حيرة وشكاً عظيمين.

بماذا تشك المرأة؟ ما هو التفسير الشافي لكل الغموض الذي يحيط بزوجها؟ من المسلم به أن رادولف غجري ومع ذلك لا يمكنها انكار بعض الصفات التي تجعل منه شبيها بأي رجل مثقف لا بل أرستقراطي نبيل، ان في حديثه أم في تصرفاته. وفي الفترة الاخيرة بالذات، أي عندما جالا في البلاد، انتفت عنه كل علامة تشير الى أنه غجري. حتى ملامحه بدت متغيرة خصوصاً وانه صار يرتدي ثياباً عادية مختلفة عن الزي شبه «الفولكلوري» الذي كان غالباً على هندامه في السابق.

والسؤال المحير يبقى لماذا هذا التبدل أو لماذا عمد رادولف في بداية تعارفهما الى كسب عدائها؟ لماذا!... لماذا! أسئلة لا تنتهي! يضاف اليها هذا المنزل الفخم قطعة جديدة في الاحجية. ما دام من غير المعقول أن يكون لغجري صديق حميم بهذا الثراء يعهد اليه بمفاتيح بيته ويعطيه حرية التصرف المطلقة، سيما وان رادولف بدا معتاداً على المجيء الى المكان من خلال معرفته كل التفاصيل المتعلقة بالأثاث وبتاريخ المنزل وظروف تشييده... يضاف الى ذلك السلطة التي يستطيع بموجبها أن يأمر الارملة بتحضير البيت وتنظيفه استعداداً لحضوره.

في هذه اللحظة دخل رادولف الى غرفة النوم مرتدياً لباس نوم أنيقا يتناقض مع شعره غير المسرح، ويعطيه شكلا فريدا جامعاً بين الظاهر الانيق والطبيعة البدائية... لا يقال عن رادولف الا أنه طائر يغرد خارج سربه!

عرف الغجري ما أثاره مظهره في نفس زوجته فقال معتذراً:

- آسف لمظهري، ولكني سأتحسن مع الوقت اذا اهتممت أكثر بالتفاصيل.

- لا ضرورة للتهكم. أتسمح الآن بأن أرتدي ملابسي فالجو ليس دافئاً كفاية هنا؟

لم يحتج رادولف لسماع المزيد فسارع الى تشغيل جهاز التدفئة المركزية. وعلى الفور غمر المنزل دفء عارم. بعد ذلك عاد رادولف الى غرفة النوم وفتح خزانة الثياب.

- ستجدين ثيابك وحقيبتك هنا.

استدار وأكمل:

- أظن أني رأيت بين ملابسك فستاناً طويلاً.

تأخرت لين في الاجابة لأنها كانت تراقب بتعجب اللباس الذي يرتديه زوجها والمناسب له تماماً مما يدل على أن قياسه معادل تماماً لقياس صديقه، حتى الكمان يناسبان ذراعي زوجها المتميزتين بطولهما.

- ماذا عن الفستان؟

- أريدك أن ترتديه الليلة.

مرر نظراته الشغوفة على جسمها وأكمل:

- سنتناول العشاء بكامل أناقتنا كأناس متمدنين.

عدلت المرأة عن الاعتراض لأن فكرة ارتداء ثوب أنيق والجلوس الى طاولة لتناول الطعام محببة بعد كل هذه الفترة البوهيمية، حيث تخلت مرغمة عن مبادئها المتعلقة بالنظافة والشكليات. وفي الواقع وجدت لين نفسها تبتسم وهي تتصور المائدة المغطاة بشرشف مزركش بالزهور والمزين بآنية فيها ورود مقطوفة من الحديقة المحيطة بالمنزل.

منحها رادولف احدى بسماته النادرة وهو يتناول الفرشاة ليسرح شعره قبل أن يقول:

- أرى أن اقتراحي أعجبك. أخرجي الفستان المعني لأراه.

فعلت لين كما أمرها وأخذت تتمشى أمامه في الثوب الاصفر الطويل دون أن تشعر بأي حرج. بل على العكس قالت بعد أن أحضرت فستاناً آخر ذا لون أرجواني:

- ما رأيك بهذا؟

أقترب الغجري من زوجته فأحست بالرعشة تعتريها وكأن في الرجل قوة مغناطيسية غريبة يزيد منها طبعه المتكبر. احمرت وجنتا المرأة وثقل تنفسها وفي ذهنها فكرة واحدة: حبها لرادولف. مع اقتراب رادولف منها أكثر زادت دقات قلبها أكثر فأكثر وعلمت أنه لو أراد ضمها الى صدره لما أحجمت بل لرحبت بذلك بكل جوارحها. لكن زوجها خيّب آمالها واكتفى بطبع قبلة ناعمة على جبينها.

٨ ـ اشراقة في القلب

جلس رادولف ولين متقابلين الى مائدة مضاءة بالشموع في شمعدان فضي، ومزينة بمزهرية مليئة بورود حمراء. وعلى طرف المائدة وضع اناء طافح بمختلف أنواع الفاكهة. أما الشرشف فأبيض كالثلج تضيئه السكاكين والشوك الفضية.

جلست لين في فستانها الاصفر سعيدة كما لم تكن يوماً منذ أن التقت رادولف، وهي تعلم أن هذه السعادة لن تعمر طويلا. فالأمسية ليست إلا واحة صغيرة في صحراء حياتها مع زوجها، والتي تنوي الخروج منها برغم كل الاعتبارات الأخرى وأهمها... حبها للغجري.

تمكن رادولف بطريقة ما من الدخول الى هذا المنزل الذي يحوي

في ما يحويه، حوضاً للسباحة في قاعة مقفلة مكيفة، وملعبا لكرة المضرب في القاعة نفسها، كما أقيمت في الجهة الخلفية بحيرة اصطناعية صغيرة لاكمال اللوحة الفنية خصوصا وانها تطل على الهضاب الخضراء الحالمة.

قررت المرأة الشابة نسيان شكوكها لتمضي وقتا ممتعا في هذا المكان الذي اعتبرته أكثر شاعرية من كل ما أبصرت عيناها. فلم تستغل الفرصة وتتذوق حلاوة كل دقيقة تمر هنا بدل ان تشغل فكرها في ما لن تستطيع توضيحه؟

من جهته ارتدى رادولف بزة رسمية سوداء وتحتها قميص أبيض يزيده اشراقاً لون بشرته السمراء، لكنه لم يبد منزعجاً من لباسه هذا أو غير معتاد عليه.

تدخل صوته معلقا بعذوبة:

ـ أنت هادئة كثيرا يا عزيزتي.

ـ اني اتمتع بهذه الامسية اللطيفة.

أكمل رادولف مازحا:

ـ وتريدين بالطبع أن تطرحي الكثير من الاسئلة. أنت اكبر امرأة متحفظة رأيتها في حياتي.

ـ وهل تريدني ان أضع كل ثقتي بك؟ ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

تجاهل رادولف سؤالها وأهتم بصب الكافيار الفاخر الذي وجده في خزانة مليئة بالمعلبات على اختلافها. وبعد ان انتهى قال:

ـ لماذا لا تطرحين علي بعضا من تلك الاسئلة المقلقة؟

ـ ومن قال أني قلقة؟

ـ ذلك يقرأ على وجهك يا عزيزتي. فلنقل أنك محتارة لا قلقة وسبب الحيرة أشياء كثيرة حدثت في الفترة الاخيرة.

ـ أشياء لا تحصى ولا تعد.

توقفت لين لتتذوق بعض الكافيار ثم أضافت:

ـ أتعني أنك مستعد للاجابة على الاسئلة، فأنت لم تخرج عن

تكتمك حتى الآن؟

- ليس في الامر تكتم بل عدم ضرورة للبوح بكل الاسرار.

وما أكثر هذه الاسرار ومنها أن البزة، وهي بالطبع ملك لصديقه، تناسب جسمه تماماً. أمن الممكن أن يكون في الامر مصادفة؟

- ماذا تعني بعدم الضرورة؟

رفعت لين عينيها الى وجهه فوجدته منقطعا عن الأكل يحدق فيها ووهج نار الشموع يزيد من سحر وجهها وجماله. أعادت اليها نظراته ذكرى لقائهما الثاني في الغابة عند ما جاء على حصانه وبدا مسحورا بجمالها. كان في الحقيقة مختلفا وقتها عما رأته فيه في اللقاء الاول حيث أعمته الرغبة فحاول الاعتداء عليها. في الغابة ظهر مهذباً وحياها بكل بساطة كأنه يقابلها للمرة الأولى، ويسعى للتعرف اليها ومصادقتها دون الالتفات الى الحادثة السابقة. حبذا لو أن تلك الحادثة لم تحصل وكان اللقاء في الغابة هو الأول، لكانت الامور بينهما مختلفة الآن!

قالت لين أخيراً بعد أن انتهت من تساؤلها:

- وهذه الضرورة أصبحت متوافرة الآن!

وجف قلبها اذ أدركت بحدس ما انها على وشك اكتشاف أمر خطير كفيل بجلب السعادة الدائمة. اختلج في نفسها شعور غريب تلاعب بانفعالاتها وجعلها في نفس الوقت تقتنع بأنها لو عرفت كيف تعالج الوضع الجديد الذي سيخلقه رادولف لما عاد زواجها منه تلك المأساة التي بدأت عند اختطافها وارغامها على عقد زواج غجري لا تؤمن كثيرا بصحته.

أجاب رادولف على سؤالها وكادت تتولى المهمة عنه عيناه الحزينتان:

- من المفيد لنا نحن الاثنين ان أوضح لك بعض الامور التي أوقعتك في مغالطات جمة.

لاحظت المرأة الحزن في عيني زوجها وتمنت لو تستطيع فعل أي شيء لتمحو هذه المسحة الأليمة من نفس من تحب. ازاء سكوتها أكمل الغجري:

- بالرغم من ذلك أفضل يا عزيزتي الا تطرحي أسئلتك الآن بل لندع الامور تتوضح تلقائياً، وذلك بات قريبا.

هز رادولف رأسه وتجهم وجهه وبدت عليه علامات القلق والتردد عندما قال بصوت خافت:

- ثمة في داخلي احساس بأن نظرتك الي تغيرت يا لين، ولكني لست أكيداً... لا، لا أجرؤ... نفذت كلماته كالسهام الى اعماق لين واختلطت عليها الامور اذ لم تفهم ما قاله زوجها. ليس أكيداً... وبالتالي لا يجرؤ على مصارحتها بما يريدها أن تعلم عنه. أحست لين بأن فرصة العثور على السعادة بدأت تضيع وبأنها لم تخلق لتعيش مع هذا الرجل تحت سقف واحد. ولكن هل هي واثقة تماما من رغبتها في العيش معه؟ مرة جديدة رأت مستقبلها قاتما وفارغا اذا تخلت عن رادولف. ومن جهة اخرى هي لا تستوعب فكرة الحياة غير المستقرة التي يعيشها الغجر. نظرت الى زوجها متوسلة وتمتمت:

- أرجوك يا رادولف، أطلعني على الخبايا، فأنا زوجتك ويحق لي ان أعرف شيئاً عنك.

هز الغجري برأسه موافقا بدون ان يبدر منه ما يرضي فضول زوجته بل قال:

- لنركز اهتمامنا الآن على وجبة العشاء سيما وأنها الاولى لنا في مثل هذا المكان الرائع. لم تجد ابتسامة رادولف في ازالة خيبة زوجته لأنه تهرب من الموضوع. والألم أصبح الآن أشد وقعا منه في الماضي كونها صارت أسيرة حب هذا الرجل، وأضحت متحرقة لكشف حقيقته.

بعد الكافيار جاء دور شرائح اللحم المشوي التي حضرها الزوجان في المطبخ الكبير بعد أن جلباها من الثلاجة الكبيرة المحتوية على الكثير من اللحوم وأنواع الطيور الشهية. وقد برر رادولف وجود

هذه الاطعمة بوجود السيدة وايت الأرملة الطيبة التي تهتم بشؤون المنزل.

- أنت تتعب السيدة وايت بطلباتك المتعددة يا رادولف.

- السيدة وايت راضية فهي تجد في الأمر تسلية تنسيها وحدتها. كما أننا بحاجة لهذا الترف بعد طول التنقل من مخيم الى آخر.

- ولكنك تحب حياة الغجر، أليس كذلك؟

- العادة تسهل كل شيء وتجعل المستحيل معقولا. ولا أخفي عليك سراً اذا قلت أني أحب التمتع بالحرية التي توفرها حياتنا الغجرية.

- ولكن حياتكم مضجرة اذ لا عمل فيها ولا نشاط.

- ليس كل الغجر بالضرورة عاطلين عن العمل. فهم يصنعون بعض أدوات الطبخ ويتعاطون التنجيم وما الى ذلك.

غلقت المرأة على كلام زوجها بسخرية:

- ماذا يفعل رجال قومك سوى شحذ خناجرهم وتلميعها؟

لم يستطع رادولف الاجابة على هذا السؤال المحرج، بل اهتم بصب الطعام واحضار عصير البرتقال. ولين الخائبة تتحين فرصة أخرى لاستجوابه.

انتهى الزوجان من تناول الطعام فسأل الغجري:

- هل أعجبك الطعام؟

- كان رائعاً، شكراً.

طغى على الجو مسحة من السحر والود. ولم تفكر لين بالمشاكل التي تفسد عليها روعة الساعة بل طرحتها جانباً لتنعم بهنيهات فرح نادرة.

بعد العشاء تناولا القهوة في غرفة الجلوس ثم اقترح رادولف أن يخرجا لتنشق الهواء المنعش. وافقت لين على الفكرة وان اعتراها على الأثر بعض الخجل:

- ولم لا نخرج يا رادولف فالجو جميل.

- أنظري الى القمر المشع فوق البحر والى النجوم... هناك الملايين منها.

سحرت لين بجمال الطبيعة وبابتسامة رادولف السخية. الآن أدركت مدى وسامته وانها صارت تنظر اليه كرجل مهذب لا كغجري متشرد مثلما اعتبرته في السابق. في هذه الليلة حصلت لين على مملكة رسمتها في خيالها، مملكة تعيش فيها مع فارس أحلامها وفي مكان لا تحققه الا الاحلام... ولكن حلول الغد سينهي هذا الحلم... لا بأس فالغد بعيد جداً.

تنزها في الحديقة والمراعي المحيطة بالمنزل والمغمورة بنور القمر، يداعبهما نسيم منعش يحمل معه رائحة البحر مجبولة بعطر الازهار الملونة بألف لون ولون.

تنشقت لين الهواء بنهم وأفكارها محاطة بالضباب بفعل الجو الغامض وهي مسرورة بذلك لأنه يحملها بعيدا عن همومها في سمفونية عذبة الالحان.

سألها رادولف كي تخرج عن صمتها:

- هل أنت دافئة؟

- نعم.

- البحر هادىء الليلة ويشجع على السباحة.

- أنت تسبح إذن.

أجاب رادولف متعجباً لسؤالها:

- بالطبع.

لم تسأله لين هذه المرة كيف يجيد السباحة مع أن الغجر لا يجيدونها عادة، بل تجاوزت فضولها كي لا تفسد النزهة الليلة.

- ما رأيك يا عزيزتي بالصعود نحو التلال؟

- أتعرف الطريق جيداً؟

- لا تقلقي فأنا معتاد على المنطقة وأستطيع السير في مسالكها مغمض العينين.

أبداً لين بطرح الاسئلة حول سبب معرفته التامة بالمكان؟ لا، فلا حاجة لافساد السهرة الرائعة حتى وان كان انسجامها مصطنعاً بعض الشيء اذ يتغاضى كلاهما عن الحقيقة.

اتجها نحو التلال في طريق مغطاة بالعشب الطري. والقمر بدأ يختبىء خلف بعض الغيوم فصار الضوء مصحوباً بظلال رقراقة تتراقص على البساط الاخضر الفسيح.

وضع رادولف يد زوجته في يده فغمر الدفء جسمها ونسيت أن في العالم احزاناً ومصائب، واصبح كل شيء جميلا جمال هذا الحلم المجنون. حبذا لو ينقلب الحلم حقيقة ويصبح فرح هذه اللحظات سعادة دائمة.

تفرقت الغيوم فعاد القمر الى جود عطائه يرمي أنواره على قمم التلال وسفوحها فتنعكس على حبيبات الندى التي تكلل رؤوس الاشجار وتخالط وريقات العشب. والنسيم المليء بالشذى يشترك مع الطيور الليلية في أداء أجمل الالحان وأروعها.

بعد ساعة من المشي قرر رادولف العودة. في الطريق تساءلت لين ما اذا كانت الحاجة التي تحثها على البقاء الى جانبه هي وليدة ساعتها وستزول متى انفصلت. والأكيد الآن أنها ترغب في الارتماء بين ذراعيه تدفىء قلبها بحرارة اللهفة والهوى.

وصلا الى المنزل ورنين الهاتف يملأ أرجاءه. فهرع رادولف ليجيب. بقيت لين في الخارج تتأمل الهضاب الواسعة والبحر الرحب تتكسر أمواجه على الشاطىء وتتطاير حبات الماء لألىء تستحم بنور القمر. وفجأة أدركت أن في وسعها الهرب وايجاد أكثر من مخبأ في هذه المنطقة الشاسعة بحيث يستحيل على الغجري أن يجدها في الظلام. معطفها معها وكذلك المال، فما عليها الا أن تركض وتنال حريتها... الحرية أصبحت على قاب قوسين أو أدنى منها، فماذا تفعل؟

مازال رادولف يتكلم على الهاتف ويبدو أنه لن ينتهي من المكالمة

بسرعة. من على الطرف الآخر من الخط؟

لو كانت المكالمة موجهة لصاحب المنزل لانتهت بسرعة كون الغجري سيبلغ السائل أنه ليس موجوداً هنا. المكالمة هي لرادولف إذن.

أصغت المرأة بانتباه ولكنها لم تتمكن من الفهم لأن زوجها كان يتحدث بصوت منخفض. كيف ارتكب مثل هذه الغلطة وترك زوجته حرة بدون حراسة وقدم لها بذلك فرصة الفرار على طبق من فضة!

وقفت لين كالبلهاء مشدوهة لا تدري ماذا تفعل. الرحيل مفتوح أمامها على مصراعيه فلماذا لا تستغل الفرصة؟ لماذا التردّد؟

أخيراً ابتسمت والتمعت عيناها وعلمت أن هذه الليلة الشاعرية يجب أن تستمر حتى آخر فصولها لأن فيها بعد الكثير من السعادة. ألقت نظرة على العالم في الخارج ثم دخلت وأقفلت الباب بهدوء.

استدارت لين لتجد زوجها واقفاً يحدق فيها وعلى وجهه علامات الاستغراب والدهشة. وقفت المرأة جامدة لا تقوى على الحراك اذ علمت نوايا زوجها. ولكنها لا تأبه بها لأنها مصممة على خوض غمار كل ما تقدمه هذه الليلة «الاستثنائية». وقفا ينظران الى بعضهما متمتعين بالسكوت لأن الكلام مهما كان بليغاً عاجز عن التعبير عما يختلج في النفس ويفيض في القلب. أخيراً استطاع الرجل أن يتلفظ بكلمة:

- يا حلوتي...

مدّ يده الى زوجته وامارات الفرح تقفز من عينيه وتهذب من قساوة ملامحه البدائية ذات الجمال الوحشي الخام.

تجاوبت لين لدعوته بابتسامة رقيقة كفيلة باذابة الصخر وأكثر القلوب تحجراً. ومدت يدها بخجل الى يد زوجها.

- كان بوسعك الهرب بسهولة... ولو فعلت لما تمكنت من العثور عليك أبداً.

قال رادولف ذلك وهو يكاد لا يصدق أن لين أضاعت هذه الفرصة السانحة وفضلت البقاء معه على استعادة الحرية. وأدركت المرأة عندها أنها لو رحلت لما غضب زوجها بل لأحس بالفراغ بعد ضياع شيء ثمين.

تحولت عبارات الدهشة في عينيه الى حنان فائض وملأ قلبها شعور واحد: الحب. حب حملها بعيداً عن الهموم الأرضية، وأحاسيس رفعتها من مستوى المادة الى مستوى الشعور. حملها رادولف كالريشة بين ذراعيه واتجه الى غرفة النوم.

- لين... ما سبب الذي يجري بيننا الآن؟

وأضاف متراجعاً:

- لا أهمية لذلك فحسبنا ان ما يجري رائع...

قاطعه رنين الهاتف فوقف مترددا، أيجيب أم يستجيب لرغبته بالبقاء قرب زوجته؟ كرهت لين صوت الهاتف وتمنت لو يخرس حتى لا يسلبها رادولف. وكم كان سرورها عظيما عندما قرر الغجري تركه يرن والبقاء معها.

- فليذهب الهاتف الى الجحيم لأني لست مستعداً لمغادرتك الآن يا حلوتي.

تنفست المرأة الصعداء وزادها قراره ثقة بنفسها وبمكانتها عند زوجها.

هل فهم رادولف أنها غارقة في حبه حتى أذنيها؟ هل أدرك أن سلطته عليها لم يعد سببها السطوة بقدر ما صار الحب؟

- رادولف... اسمك غريب ولكنه يعجبني.

- اسمي ايرلندي قديم جداً.

- أليس اسماً غجرياً؟

- لا.

تردد الرجل طويلا قبل أن يكمل:

- في الحقيقة هو اسم كان يطلقه نبلاء ايرلندا على أولادهم.

- وكيف اتفق أن غجرياً حصل على اسم ايرلندي يعود الى النبلاء؟

- لا أعتقد أن في ذلك جريمة.

دفعها الفضول الى مزيد من الاسئلة.

- وهل هناك الكثير من الرجال الغجريين يحملون نفس الاسم؟

- أظن اني الوحيد الذى يحمله.

- لم تذكر لي شيئاً عن والديك يا رادولف.

قال وفي صوته حزن عميق:

- كلاهما ميتان.

غرقت لين في ذراعيه أكثر ووضعت يدها الناعمة على خدّه.

- أخبرني عن والدتك.

- ماتت أمي وهي تضعني.

- آه! ان هذا الأمر مؤسف حقاً.

لم ينجح رادولف عندما علق على كلامها في اخفاء الاسى من نبرته.

- ان موتها المبكر لم يشعرني بفراغ لفقدانها، فلو ماتت وأنا فتى يافع مثلاً لكنت أصبت بحزن أكبر.

- أنت وحيد في هذه الدنيا إذن.

- ولماذا استنتجت أني وحيد في هذه الدنيا؟

- ألديك اخوة أو اخوات؟

لم يجب الغجري على سؤالها مباشرة بل اكتفى بالقول:

- كنت أعتبر نفسي وحيداً حتى تزوجت.

- أنت لم تجب على سؤالي.

- حسناً يا عزيزتي، لي أخ واحد.

- اني أحسدك على ذلك. أين يعيش اخوك؟

- في أحد المخيمات.

- ألا ترتاه أبداً؟

أجاب رادولف بحدة وكأن الموضوع بات مزعجاً:

ـ لم أره منذ مدة طويلة. كفانا كلاماً ولنخلد الى النوم.

ـ لا اشعر برغبة في النوم.

ـ لماذا؟

لا تقوى لين على البوح بالسبب الحقيقي الذي يجعلها تتمنى لو تمتد هذه السهرة الى الأبد. والوقت الرائع هذا هو في الواقع أثمن من أن يهدر بالنوم.

ـ لست تعبة.

قالت ذلك وأكملت بسرعة حتى تمنعه من التعليق:

ـ للاسماء القديمة معانٍ فما معنى رادولف؟

ـ أخشى أن لا يعجبك معناه فكلمة رادولف تعني الذئب السريع.

لقد كان الغجري بالفعل ذئباً سريعا لما لحقها على حصانه واختطفها. نظرت لين الى الجرح فرأت أثره واضحاً على خده وخشيت ألا يزول أبداً.

ـ أعتقد أن اسمك مخيف قليلاً.

ـ لا أنوي اخافتك الآن لأني أريد أن أغفر.

طبع قبلة ناعمة على جبينها وأطفأ النور ضاماً اياها بين ذراعيه. وما كادت تمر دقيقة حتى غط في سبات هانىء وعميق.

أفاق الزوجان باكراً وجلسا على الشرفة الواسعة يتناولان طعام الفطور. وبعد قليل رن جرس الهاتف. هب رادولف من كرسيه معلقا:

ـ لا شك انها المكالمة التي كان يجب ان أجيب عليها بالامس. أكملي فطورك يا عزيزتي فلن أغيب كثيراً.

عاد رادولف بعد قليل متجهم الوجه كأن ويلا كبيراً قد حصل فسألته زوجته قلقة:

ـ ما الأمر؟ هل هناك ما يقلق؟

ـ لا شيء يهمك يا لين.

ـ ولكن كيف تتلقى مكالمات الى هذا المنزل ولا أحد يعلم بوجودنا هنا؟

ـ أنت مخطئة في تكهناتك والدليل على ذلك اني تلقيت مخابرة البارحة.

ـ مخابرة من الأشباح على ما أظن! لماذا تحيط نفسك بهذه الهالة من الغموض وبهذا الحجاب من الاسرار؟ أشعر بنفسي حيال ذلك انسانة غريبة لا زوجة!

لم تلحظ المرأة ان عيني زوجها الغاضبتين تدلان على عدم رغبته في الكلام وعلى مزاجه المعكر، بل دفعها قلقها عليه الى المزيد من الالحاح فقال الغجري بحدة:

ـ ألن تكفي عن الاسئلة السخيفة؟

بدأت الافكار السوداء تلعب في رأسها من جديد. أيكون سبب تكتمه الشديد حيال اتصالاته نشاطات غير مشروعة يقوم بها؟ وقد تكون هذه النشاطات مصدر المال الوفير الذي يملكه والذي يخوله القيام برحلات طويلة والانفاق على الثياب الانيقة. كما هناك الحصان الأصيل الذي امتطاه في الغابة، ووجوده في هذه الدار الفخمة... أمن المعقول أن يكون المنزل ملكاً له وهو مجرد غجري! أسئلة لا تعرف لها جواباً واحداً...

كانت غارقة في أفكارها فانتشلها صوت زوجها:

ـ أنا مضطر للخروج يا لين. أتعدينني بأنك لن ترحلي؟

ضربت لين الارض بقدمها وقالت مصرة:

ـ سأرافقك!

سكتت فجأة بعد أن رأت الرفض القاطع في عينيه. ثم هدأت بعد أن خطرت لها من جديد فكرة الفرار. برغم الساعات اللذيذة التي أمضتها وبرغم بزوغ فجر الحب في قلبها، فهي امرأة تنتمي الى محيط اجتماعي مختلف تماماً عن البيئة الغجرية. فالحب مهما قوي

وعمق لا يستطيع أن يغير من واقع الحال شيئا ويجعلها تندمج في حياة رادولف وقومه، فجذوته لا بد ستخبو مع الوقت ومع اصطدامها بمرارة الواقع والحياة اليومية.

احتاجت لين الى شجاعة فائقة لتحبس دموعها. ولكن شجاعتها خانتها عندما أعاد عليها زوجها السؤال نفسه.

- أتعديني بأنك لن ترحلي؟

أمام ترددها لم يجد الغجري حلاً سوى حملها الى غرفة النوم وحبسها هناك. وفي الوقت الذي سمعت فيه لين صوت المفتاح يدور في القفل نظرت صوب النافذة. غلطة جديدة ارتكبها رادولف بسبب انشغاله وقلقه الشديدين. ما عليها الآن سوى انتظار رحيله لتخرج بكل سهولة من النافذة، فالبيت أرضي ولا خطر من التسلل عبرها. لكن لين لم تترو وتنتظر ذهاب زوجها فسرعان ما ارتدت معطفها وأخذت حقيبة يدها ثم فتحت النافذة وأصبحت في الخارج.

كانت أشعة الشمس ساطعة والبحر ساكناً والطبيعة هادئة. ولم تستطع لين محو ذكرى التفاصيل الحلوة التي تسربت في الليل الفائت لتضيء ظلام حياتها. عاد كل شيء الآن الى سابق عهده. وها هي تنفذ عملية الفرار التي غابت عن فكرها في ساعات السعادة الماضية.

آه لو كان رادولف رجلا عادياً كغيره من الرجال! رجل يشغل وظيفة محترمة ويهتم بتأمين الرعاية والحنان لزوجته وأولاده...

انهمرت الدموع من عينيها وكادت انفعالاتها تقودها الى العدول عن الهرب والمغامرة في البقاء زوجة للغجري قانعة بمصيرها، لكن الغلبة كانت في النهاية للعقل والمنطق. فتابعت المرأة طريقها بين شجيرات الحديقة لتجد منفذاً يقودها الى الطريق العام. وبينما هي تختبىء بين الشجيرات سمعت رنين الهاتف في المنزل ووقع قدمي رادولف يهرع للاجابة. عندها دفعها حدسها للعودة الى المنزل فجلست القرفصاء تحت نافذة غرفة الجلوس لتستمع الى الحديث.

- ... أحسنت يا أولاف وستنال مكافأة عظيمة مقابل ذلك.

أقلت انه آت الى هنا؟ أخيراً سأتمكن من... لم تستطع لين فهم بقية الجملة بل سمعت:

- كنت يائسا يا صديقي ومتأكداً من أن الامر سينتهي به في السجن. لو أستطيع التحدث واقناعه...

وضاعت الكلمات من جديد فجنت لين من الغضب. كادت تتوصل الى معرفة الحقيقة لولا حظها السيء. وفجأة سمعت صوت زوجها يقول لأولاف:

- لا حاجة لتحركي من هنا الآن. لقد اتصل بي راوول منذ بضع دقائق وأبلغني أن بوريل كان في مخيم روجنتري في السهل المجاور، فقررت الذهاب لملاقاته هناك. أما الآن وقد اخبرتني أنه آت الى هنا فسأنتظره وافاجئه.

توقف رادولف مفسحاً المجال لصديقه بالكلام. وتمنت لين لو تسمع ما يقوله الغجري الكهل لزوجها الذي عاد الى الكلام بصوت منخفض فلم تتمكن المرأة الا سماع جمل غير مترابطة.

- أرجو الا يعلم بوجودي هنا... جاء مرة مع فتاته... صحيح والا لما عرفت... لا أعرف كيف أرد لك الجميل يا أولاف.

تساءلت لين عن معنى هذا الكلام وهي تنتظر زوجها ليعاود الحديث. لكنها تأكدت من أمر واحد وهو أنها ستبقى حتى يأتي المدعو بوريل علها تشبع فضولها ويصدق الحدس الذي أنبأها بأن مصيرها ومستقبلها يتعلقان بقدوم هذا الرجل.

- ... كان علي الاخذ بنصائحك يا أولاف والكف عن مطاردته، خصوصاً بعد أن أصبحت مثقلا بالمسؤوليات. خفق قلب لين بشدة اذ فهمت أنه يعنيها بالكلام على «المسؤوليات».

- ولكنك تعلم يا أولاف أني لا اقبل بالهزيمة. وأنا متفائل بأني اذا تمكنت من لقاء بويل والتحدث اليه فسأسوي الامور وأضع كل شيء في نصابه.

أقفل الغجري الخط بعد قليل فقررت لين العودة الى غرفتها قبل

أن يكتشف زوجها غيابها. ولكن الحظ أبى الا أن يوقعها في مشكلة جديدة. فما كادت تخطو حتى تعثرت بغصن شجيرة وسقطت بقوة فارتطم رأسها بالارض وصاحت من الألم. لم تمر ثانية على سقوطها حتى كان رادولف الى جانبها فحملها الى المنزل على جناح السرعة.

- آه، رأسي!

أحست لين بالدنيا تدور فيها وبكل شيء أمامها يتراقص ومع ذلك لمحت في عيني زوجها مزيجاً من الغضب والاسى. لقد خذلته بعد ما تأكد من أنها لن تحاول الفرار بفعل الانسجام التام الذي ساد بينهما في الليلة الفائتة. أخذت المرأة تتوقع الرد القاسي على عملها لكن الغجري ضبط أعصابه واهتم باسعافها.

- كدمة لا بأس بها على الاطلاق، سأحضر شيئاً يريحك.

نظر اليها وأضاف:

- لا ريب أنك مصابة بصداع من جراء الصدمة.

- نعم يا رادولف.

- لماذا فعلت ذلك؟

- لا تعتقد أني كنت أنوي الفرار. على العكس...

لم ينتظر الغجري سماع المزيد فقاطعها حانقاً:

- لا تكذبي! ماذا عن حقيبة اليد هذه؟

فتح الحقيبة وتفحص محتوياتها رامقاً زوجته بنظرات شريرة. كيف تفسر له ما حدث وهي في الحقيقة كانت تنوي الفرار لو لم تسمعه يتكلم بواسطة الهاتف مع أولاف...

قالت بصوت ضعيف والألم في رأسها لا يكاد يطاق:

- حبذا لو استطيع أن أشرح لك ما حدث!

- من الواضح أنك لست على استعداد لشق طريق الحياة برفقة غجري من حثالة المجتمع.

أخذ رادولف يقول بشبه همس:

- كان عليّ أن أعلم أن المسألة ستصل الى طريق مسدود لا محالة.

- ما الامر يا رادولف، أخبرني.

أخفت نبرة التوسل في صوتها الحب الجارف الذي يكنه قلبها لهذا الرجل الغامض الواقف أمامها والمرارة تكاد تحطمه على رغم جبروته وسطوته.

- ما الفائدة من اطلاعك على الحقيقة ما دمت تحتقرينني وتعتبرينني غير أهل بالعيش واياك؟

أين التعالي الذي قابلها به في السابق؟ أين الغطرسة والكبرياء؟ تحول غضبه الى ذل وصلفه الى مهانة. ولما حاولت لين، مدفوعة بشعور الذنب، تطييب خاطره أسكتها باشارة من رأسه.

- لا تحاولي اصلاح ما فسد. سأعرض عليك خطة أرجو أن توافقي عليها ولكن بعد أن تتناولي هذه الحبوب وتنامي قليلاً.

نهضت لين من الكنبة وأسرعت نحو غرفة النوم حانقة وهي ترغب برمي زوجها الغامض بأحد التماثيل لعله يخرج عن صمته المطبق.

- ما بك يا لين؟

- بالله عليك! أطلعني على الحقيقة فهذا من حقي.

- أي حق هذا؟

- أنا زوجتك ولي الحق...

قاطعها بضحكة ساخرة تخالطها اللوعة:

- لا أستطيع أن أفضي اليك بأسراري ما دمت لا تعتبرين نفسك زوجتي.

- ولكنك كنت على وشك البوح بها البارحة.

- كدت أفعل لأني كونت فكرة خاطئة عنك. شعرت أن نظرتك الي تغيرت وان كرهك لي خف وأننا قد نستطيع...

توقف فجأة وناولها الدواء قائلاً:

- دعينا من هذا الموضوع وتناولي الدواء ليخف الألم.

- لا تخف علي فلن أموت.

ـ هيا الى السرير فأنت تعبة.
ـ لا أريد أن أنام!
هددها بلهجة آمرة:
ـ لا تجبريني على حملك اليه بالقوة!
تناولت المرأة الدواء وتوجهت الى سريرها كي لا تفعل ذلك مكرهة وقبل أن يخرج من الغرفة سألته:
ـ لماذا لن تبوح لي بكل شيء؟
ـ لأن نظرتك الي لم تتغير مع الاسف. والدليل على ذلك انك حاولت الفرار. فلنكن صريحين ونعترف بأنني لست مؤهلاً لأكون زوجا لك، على رغم أنك معجبة بي.
لم ترض لين بهذه الحقيقة فصاحت معترضة:
ـ معجبة بك؟ يا لك من مغرور!
فوجئت المرأة بأن زوجها لم يغضب بل قال لها بهدوء جعلها تخجل من كذبها:
ـ أؤكد لك أنك معجبة بي وتتناحين لوجودي معك. ولكنك غير قادرة على التأقلم في حياتي الاجتماعية وعلى التخلص من عقدة التفوق.
ـ حسناً، أعترف بأني أشعر نحوك بالتفوق اذا كان هذا يرضيك.
ـ اعتراف غير مقنع تماماً. سنجد فرصة أخرى للتصارح أما الآن فالى النوم!
توجه الى النافذة وأخرج من جيبه قفلاً ركزه عليها بطريقة لم يعد ممكناً معها فتحها بدون نزع القفل.
ـ آسف يا حلوتي ولكني مضطر لفعل ذلك.
ـ أمن العدل أن تجعلني سجينة هذه الغرفة؟
تابعت متوسلة:
ـ أعدك بأنني لن أهرب.
ـ لن أعود عن قراري فالتجارب السابقة لا تشجعني على الثقة

بك.
خرج رادولف من الغرفة وترك زوجته وحيدة في سريرها تنتظر المجهول. لكن الألم والتعب تعاونا عليها فأغمضت عينيها ونامت.

٩ ـ الغريب

أفاقت لين مذعورة على صرير باب غرفتها يفتح ورأت رادولف يطل برأسه فسارعت الى القول:

ـ أدخل فأنا بخير ولم أعد بحاجة الى النوم. كم الساعة الآن؟

ـ الواحدة ظهراً. كيف تشعرين؟

دخل رادولف فعلمت لين من ملامح وجهه أن بوريل لم يأت بعد.

ـ صرت أحسن بكثير فالصداع زال والحمد لله.

ـ أتستطيعين تناول الطعام؟

استوت المرأة في سريرها وتلاقت نظراتها ونظرات زوجها. ولم تمانع في أن يتأمل الغجري مفاتنها بحرية.

ـ أعتقد أن فكرة الأكل صائبة جداً. ماذا لدينا اليوم؟

ـ لدينا بعض السمك المشوي.

ـ أعتقد أنك تعد لائحة بما تستعمله لتسدد ثمنه لصديقك، أليس كذلك؟

أجاب الغجري مبتسماً:

ـ لا، ما علي سوى سرقة هذه الاغراض فصديقي لا يعرف ماذا يملك لكثرة غناه.

ـ ألن تستطيع التخلي عن عادة السخرية والتهكم؟

ـ ألن تستطيعي التخلي عن عادة طرح الاسئلة ما دمت تعلمين طريقة اجابتي عليها؟

عقدت لين حاجبيها متذمرة:

ـ يا لك من لغز محير! اكتشفت أنك ذو شخصية مزدوجة.

ـ بالله عليك أخبريني عن هذا الاكتشاف العظيم!

ـ أنت تتحول مثلا من حمل وديع الى وحش مفترس!

رفع رادولف يده الى الجرح الذي ما تزال آثاره بادية في وجنته وقال:

ـ وحش مفترس! لقد قدتني بتصرفاتك الخرقاء الى أفعال ما كنت أتصور اني سأرتكبها يوماً.

ارتبكت لين لأنها لا تستطيع كتم شعور بالذنب كلما رأت ذلك الجرح في وجه رادولف، وان يكن ذلك الشعور لا يعني ان الغجري لم يستحق الضربة... لا بل كان يستحق أكثر! انه رجل غريب الاطوار فلما تبعها بعد تعطل سيارتها لم يخطر ببالها انه سيحاول الاعتداء عليها ولكنه فعل! ولم يحبط محاولته سوى تدخل صديقته الغجرية التي اختفت منذ ذلك اليوم ولم تر لين وجهها في أي من المخيمات التي زارتها مرغمة في المدة الاخيرة. لا شك أن رادولف تخلى عن صديقته بسهولة، رغم أنه أظهر طاعة عمياء تجاه أوامرها القاضية بالابتعاد عن لين المسكينة.

ذكرها رادولف بأن الغداء جاهز.

- سأحضر الطعام الى هنا اذا كنت تفضلين ذلك.

أومأت لين بالنفي وأسرعت بالنهوض لأنها لا تريد تفويت فرصة لقاء الرجل المنتظر: بوريل... اذا سمح لها زوجها بذلك.

كان الزوجان الشابان جالسين الى المائدة لما سألت لين:

- أتريد مناقشة الخطة التي تحدثت عنها؟

لم يجب الغجري على الفور بل نظر الى ساعة الحائط قلقاً من تأخر بوريل في الوصول.

- سنبحثها لاحقاً بعد أن تستقر أوضاعنا.

أيقنت لين أن لا جدوى من متابعة الموضوع ما دام رادولف لا يرغب في إطلاعها على شيء. ماذا عنى باستقرار أوضاعهما؟ تنهدت معلنة فشلها في حل جزء ولو صغير من اللغز الكبير الذي يحيط بالغجري ذي الشخصية الغريبة.

عاد رادولف الى الكلام وفي صوته نبرة تؤذن بالقلق:

- لا أعتقد أنك تمانعين بقاءنا ليلة أخرى هنا.

- أفضل ذلك على وجودي في مخيم غجري.

هز رادولف برأسه موافقاً كأنه يعتبر كلامها صحيحاً ويشاطرها كرهها للمخيمات.

- وهكذا ستتمكن مرة أخرى من تناول العشاء كأناس متمدنين.

- أحيانا عندما تتكلم، لا أراك غجريا يارادولف!

- ومع ذلك أنا غجري ابن غجري.

تفحصت لين لونه الاسمر، شعره المتجعد، عينيه السوداوين اللتين تعلمت قراءة ما فيهما من أحاسيس: الغضب والرغبة، الهوى الجامح الذي تلظت بناره لما أجبرها على الزواج منه وأمضت معه «شهر عسل» مراً في تلك العربة المقيتة. ومؤخرا تعلمت قراء الطيبة، الندم، الأسف والحزن العميق في عينيه السوداوين. أما في هذه اللحظات بالذات فتقرأ فيهما تحدياً كأن رادولف ينتظر منها ان

تحاول انكار كونه غجرياً انه يعلم ما يدور في خلدها من أسئلة محيرة.

لكن لين تجاوزت التحدي وقالت:

- ما سبب مكوثنا هنا ليلة أخرى؟

كانت تعلم أن السبب هو رغبة رادولف بلقاء بوريل، اذا لم يحضر اليوم. وبالفعل لم يخيب زوجها ظنها عندما أجاب:

- أنا أنتظر شخصاً هنا.

تظاهرت لين بعدم معرفتها بذلك فتعجبت معلقة:

- تنتظر رجلاً أو امرأة؟

لم يستعجل رادولف بالاجابة بل صرف وقتا طويلا في تذوق لحم السمك الشهي:

- أنتظر رجلاً.

- من المستغرب أن تستضيف زواراً في هذا المكان!

قالت لين ذلك وعيناها تنظران الى الارض مخافة أن تفضحاها ويكتشف رادولف أنها تعلم أكثر مما يجب.

- لا يفاجئني ذلك ياعزيزتي فهناك الكثير من الامور التي تعتبرينها مستغربة ومستهجنة، واعدك بأنها ستتوضح عندما أطلعك على خطتي.

ماذا حدث لصوت رادولف الآمر؟ لماذا هذا الارتجاف الذي يخفي خوفا من ان ترفض لين الخطة المذكورة؟

- ما تفعله مجرد تسكين للألم وتأجيل للمشكلة، فأنا ضقت ذرعاً بهذه الاسرار!

- الخطأ خطأك... لو لم تعتبريني حثالة المجتمع لما حصل كل ذلك.

لم تعرف لين كل هذه المرارة والحسرة في صوته قبل الآن، ولم تر شفتيه مرتعشتين ويديه ترتجفان. ثقته الكبيرة بنفسه لم تفلح في اخفاء توتره وانفعاله وكأن مستقبله معلق على ما سيحدث في الساعات القليلة المقبلة.

من جهتها حافظت لين على هدوئها وتكلمت يدفعها الحب المسيطر على جميع تصرفاتها وأقوالها:

- ألم يخطر لك أني غيرت رأيي فيك؟ لقد قلت ذلك تحت تأثير الصدمة والهلع! أي انسان يقول أشياء ثم يندم، كما يفعل أشياء ثم يندم.

كانت تشير بكلامها الى غلطتها المشتركة، غلطتها في نعته بحثالة المجتمع، وغلطته في ضربها وارعابها. لا ريب في أن رادولف نادم على استعماله العنف وأنه لن ينسى ما فعلت يداه بسهولة.

أكملت المرأة حديثها والغجري يحدق فيها باستفهام:

- راجعت ضميري مرارا بشأنك. أقر بأن عندك ازدواجية في الشخصية وان فيك جانبا سيئا ذكرته مرة ولكنك تملك جانبا حسناً لا انكر اعجابي به.

تبع ذلك سكوت تام، سكوت دهشة بحث خلاله رادولف عن عيني زوجته ليفهم أكثر. ولكنها هربت من نظراته وتكاد لا تصدق ما تفوهت به. كانت على وشك الاعتراف بحبها لا بل هي فعلت بطريقة غير مباشرة. اذ لا مفر من كون رادولف فهم ذلك من قولها هذا وتصرفاتها في المدة الاخيرة.

أحست لين بالانكسار لانها لم تستطع مقاومة الحب الذي نما في داخلها تجاه هذا الرجل. والذي بدأ كشعور بالانجذاب نحوه منذ ان رأته رغم أن لقاءها به حفل بالذعر والخوف. ورغم أنها تأبى فكرة العيش زوجة لغجري. جماله البدائي وطبيعته العفوية المتسلطة سيطرا على كيانها كالقدر المحتوم. ولم تنجح في الافلات من قبضتهما ومن نزعتها الامتلاكية.

عندما نظرت اليه أخيراً ووجدت ما وجدت في عينيه، علمت ان الامر قد فصل وانها مستعدة للمتابعة حتى النهاية ولتسليمه الدفة لقيادتها الى حيث يشاء. قبلت بالعيش مع الغجر مهما كان رادولف ومهما فعل وأدركت أن ارتباطها به ليس آنياً كما تصورت. بل نهائياً.

أخذ الغجري يهز رأسه غير مصدق ما سمعت أذناه.

- اذا صح ما تقولين يا لين فهناك أمل كبير لنا!

ظهر للين جلياً أن عبئاً كبيرا نزل عن كاهله لما تكلم، وان آفاقا جديدة فتحت امام عينيه. أيحبها رادولف؟ أيمكن ان يتخلى عن مجتمعه وأهله من أجل حبها؟ أمن الممكن ان يعيشا حياة طبيعية في منزل صغير ويتخذ رادولف مهنة شريفة يرتزقان منها ويربيان أولادهما تربية صالحة؟ عسى ألا تكون هذه الافكار سرابا واضغاث أحلام...

- لين، أتعنين ما قلت؟ ألن تحاولي الفرار والرحيل عني؟

لم يدم ترددها طويلاً وسرعان ما منحته عليه بأحلى ابتسامة وقالت بصوتها الحنون:

- أعني كل حرف خرج من فمي. لن أتركك ابداً.

توقف الكلام عند هذا الحد. وأظهر الزوجان ارتياحاً عارما بعد ان لاحت بشائر الأمل بحياة سعيدة مديدة وان يكن الأمر بحاجة لبعض التفاصيل البسيطة...

كانت عقارب الساعة تشير الى الرابعة بعد الظهر لما رن جرس الهاتف. ترك رادولف الرسائل التي كان يكتبها وأسرع ليجيب على المكالمة.

رأت المرأة زوجها ينفعل، يتجهم، ويمتلىء غضبا أبيض. ثم يقول بصوت مخنوق:

- وهل ماتت؟ لم تمت ولكنها بحالة خطرة؟ يجب أن أعثر عليه قبل رجال الشرطة. يا الهي لماذا لم يأت الى هنا كما كان ينوي!

تملكها خوف شديد لا تعلم سببه وهي تراقب زوجها يستمع الى محدثه بقلق عميق. وعلمت ما سيقوله بعد ان يقفل الخط.

- علي الخروج لبضع ساعات يا عزيزتي. ارجوك لا تطرحي علي أسئلة لأن الوقت لا يعمل لصالحي.

لا خوف عليك من البقاء هنا واذا شئت أرسل لك السيدة وايت

لتعنى بك في غيابي.

- أأستطيع مرافقتك؟

- لا يا لين فأنا لا أريد اقحامك في هذه المشكلة.

اقتنعت المرأة وقالت انها ستكون بخير وبانتظار عودته على أحر من الجمر.

- أرجو أن أتمكن من العودة خلال الليل. وفي أي حال ساكون هنا صباح الغد كحد أقصى.

طبع قبلة ناعمة على جبينها وأضاف:

- سيكون كل شيء على ما يرام بيننا قريباً يا ملاكي.

بعد ثوان معدودة أقلع بالسيارة بسرعة فنهبت الارض نهبا مرسلة سحابة من الغبار في الفضاء.

جلست لين وحيدة تحدق في البحر الازرق الهادىء المتلألىء تحت قرص الشمس الاحمر وليس لديها سوى أفكارها وتساؤلاتها تؤنس وحدتها. من يكون بوريل هذا؟ لا ريب في أنه شخص مهم بالنسبة الى رادولف وانه ارتكب عملا خطيرا يعرضه لملاحقة العدالة...

تنهدت بعد أن تعبت من التفكير وقالت بصوت عال:

- لماذا أتعب رأسي بهذه الامور ما دمت لا أملك وسيلة ناجحة لمعرفة الحقيقة؟

تدريجيا بدأ الغسق يلف الدنيا ملونا البحر بستار رمادي، والجبال بوشاح قرمزي ناعم. قررت لين ان تقوم بنزهة بعد العشاء الخفيف الذي تناولته. وبعد عودتها تمددت على كنبة مريحة في غرفة الجلوس المضاءة بنور شاحب يضفي عليها جوا شاعريا يحتاج الى وجود رادولف ليكتمل! تمنت أن يكون لها يوما بيت كهذا تعيش فيه مع من تحب، ولربما تحققت أمنيتها متى تدبر رادولف وظيفة محترمة.

شغلت المرأة نفسها بقراءة بعض المجلات حتى لا تشعر ببطء الوقت وثقل الوحدة. كما استمعت الى موسيقى ناعمة تبث بواسطة مكبرات للصوت منتشرة في جميع غرف المنزل.

في حوالى العاشرة أوت الى فراشها بعد ان استبعدت عودة رادولف وما لبثت ان غفت على صوت حفيف الاوراق تتصادم بفعل النسيم العليل.

أفاقت لين من غفوتها مرتعدة على ضجة خفيفة فجلست في سريرها صامتة، تاركة النور مطفأ. ولما لم تتكرر الضجة غفت من جديد ولكن لدقائق قليلة فقط اذ سرعان ما فتحت عينيها على صوت جرار يفتح. ربما عاد رادولف ولم يشأ ازعاجها فدخل لينام في غرفة أخرى. همت لين بالنهوض لملاقاة زوجها ولكنها عدلت كي لا تزعجه اذ لا شك في أنه مرهق جداً، ومحتاج للوحدة لاستجماع أفكاره والتقاط أنفاسه. بامكانها انتظار طلوع النهار حتى تطلع منه على الحقيقة التي وعد بكشفها حالما ينتهي من مهمة العثور على بوريل.

أضاءت لين المصباح الكهربائي الموضوع قرب سريرها ونظرت الى الساعة: الثالثة فجرا. لو كان معها كتاب تطالعه لأضاعت الوقت حتى تبدأ الشمس بالنهوض وتطرد ظلام الليل الدامس. أتذهب الى غرفة الجلوس وتحضر كتابا من تلك الكتب المرصوفة على امتداد الجدران؟ تخلت المرأة عن هذه الفكرة مخافة ازعاج زوجها، فأطفأت النور وعادت الى النوم.

أفاقت لين في الخامسة وقررت الانتظار ساعة حتى تنهض لأن رادولف أوى الى سريره متأخرا. فلا ضرورة لايقاظه في هذا الوقت الباكر. بعد ساعة دخلت الى الحمام وأمضت وقتا طويلا تحت الماء الساخن تنعش جسمها بعد حادث وقوعها في اليوم الماضي. بعد ذلك جلست أمام المرآة تتبرج استعدادا للقاء رادولف على أمل ان تكون مهمته انتهت على خير وتبدأ صفحة جديدة في حياتهما. بعد أن تأملت وجهها جيداً في المرآة ووجدته مرضياً ارتدت برنسا ابيض وخرجت الى الممشى تبحث عن الغرفة التي يحتلها رادولف.

في تلك اللحظة فتح باب احدى الغرف فاستدارت لين

مبتسمة... ولكن الابتسامة لم تطل لما رأت المرأة وجه الغجري. ماذا حل به؟ عادت الى وجهه امارات الفظاظة والوحشية التي طالعها بها في ذلك اليوم الذي لا ينسى حين حاول الاعتداء عليها...

همست لين مذهولة:

- رادولف... ماذا...

صمتت عندما رأت القميص مفتوحاً على صدر يغطيه شعر أسود كثيف. أكثف مما عهدته فيه! رفعت عينيها الى وجهه ووضعت يدها على فمها لهول المفاجأة: من أين أتى بهذه النظرات الرهيبة كشخص ظهرت امامه رؤيا أسطورية!

- رادولف أنت تخيفني...

كان مظهره كمجنون خطر وظنت لين ان الجانب الشرير طغى مرة أخرى على الشخصية المزدوجة وان رادولف الذي يقف أمامها ليس رادولف الذي تعرفه... ولكنها ما لبثت ان ابتعدت اكثر من ذلك وأدركت أن هذا الرجل ليس زوجها!

توضحت الصورة امام عيني المرأة بسرعة البرق. فهذا الرجل هو بوريل الذي يبحث عنه رادولف، وهو بالطبع الشقيق الذي حدثها عنه زوجها وان يكن قد أغفل ان يذكر انهما توأمان!

تكلم الرجل أخيراً:

- ما الذي أتى بك الى هنا؟

تراجعت لين خائفة تفتش عن باب غرفتها لتقفل على نفسها هربا من هذا الغجري الشرير. وكان هلعها شديدا فانعقد لسانها ولم تستطع التفوه ولو بكلمة واحدة.

كرر الرجل سؤاله وهو يقترب منها ببطء. ولسوء حظها وجدت نفسها تصطدم بالجدار بدل ان تقودها قدماها المرتجفتان الى الغرفة. فجحظت عيناها وفغرت فاها عاجزة عن الحراك.

- رادولف... يبحث عنك...

ارتسم على شفتي الرجل ما ظنته لين ابتسامة وقال بخبث:

- سمعت أن أخي تزوج فأنت ولا شك الزوجة المحظوظة.

- أصبت.

- يا للصدفة! وأنا كدت أنال منك في الغابة لولا تدخل هذه الحقيرة ماندا لانقاذك!

أطلق بوريل ضحكة شريرة وأضاف.

- يا لسخرية القدر كدت اعتدي على زوجة أخي!

مرّر أنامله الطويلة في شعره الأسود الكثيف فزاد شكله غرابة واقترابا من العته.

عاد الى الكلام والرغبة تخنق صوته:

- لكن ماندا لن تستطيع انقاذك الآن ومنعي من التمتع بجمالك. سأصيب عصفورين بحجر واحد، أهو قليلاً وانتقم من اخي المحترم بعد كل ما فعله معي.

بدا بوريل مستعداً للانقضاض على فريسته الضعيفة ولين عاجزة عن الحراك بعد ان خانتها شجاعتها ولم تعد تقوى على الصراخ. مرت في مخيلتها صور كثيرة ففهمت تقريباً كل ما حدث. حدقت في وجه الغجري جيدا وأيقنت ان الرجل الذي هاجمها عند تعطل سيارتها ليس نفسه لذي قابلته في الغابة على الجواد! سيما وان بوريل يحمل اثر جرح عميق في مفرق شعره بان واضحا عندما مرر يده فيه. آه لو انها انتبهت لهذا الجرح لكانت وفرت على نفسها وعلى زوجها الكثير من الآلام والأحزان! وفهمت من الآن لماذا كان رادولف يشير الى الحادثة الثانية لما كانت تكلمه عن الاولى! فكيف يذكر الاولى وهو لم يكن طرفاً فيها!

أمر بوريل بلهجة مفزعة:

- اقتربي مني يا امرأة! تعالي لأرى ماذا تحت هذا البرنس الجميل. لا بد أن شقيقي المليونير يقدم لك ما ترغبين من الثياب، أما أنا فلا أملك سوى نفسي أقدمها!

تبع ذلك ضحكة هستيرية ملأت أرجاء المنزل وأشعرت لين ان

أذنيها ستنفجران.

- لنأمل يا حلوتي ان يطول غياب رادولف حتى اتمكن من الاسترسال بما أنوي فعله.

مد يده السمراء نحو لين فصارت المرأة على حافة الاغماء. ولما انقض عليها بدأت بمقاومته بكل ما اوتيت من قوة. كان لبوريل قوة ثور هائج، لكن يأس لين دفعها الى الصمود وهي تنتظر حلول معجزة ومجيء زوجها لينتشلها من براثن شقيقه المتوحش. ولكن زمن المعجزات ولى وشيئاً فشيئاً بدأت قواها تخور وعزمها على المقاومة يضعف الى ان هدأت تماماً وتمددت مستسلمة على الارض. حملها بوريل الى كنبة في غرفة الجلوس ولما هم باتمام فعلته الحقيرة، دبت فيها قوة مفاجئة فرفسته على معدته وسقط على الارض مغشياً عليه بعد أن ارتطم رأسه بحافة الموقد. كان هذا آخر مشهد رأته لين مشوشاً وفقدت الوعي بعد ذلك...

١٠ - رادولف والحب الكبير

لما عادت لين الى وعيها وجدت ان بوريل ما يزال ممدداً على الأرض والدماء تنزف من رأسه.

- ماذا فعلت؟ هل قتلته؟

تغلبت المرأة على خوفها واقتربت تنصت الى قلبه تتحسس فيه الحياة. كم كان ارتياحها كبيراً عندما رأت ان قلبه لم يتوقف عن الخفقان. وعلى الفور شرعت تفتش عن رقم طبيب تتصل به هاتفياً ليأتي ويعتني ببوريل. ولكنها ترددت بعد ان تساءلت عن رغبة زوجها بحضور طبيب ليعالج اخاه الفار من وجه العدالة.

فوجئت لين بهدوء اعصابها وكأن الطبيعة اعادت اليها توازنها لما فقدت وعيها. رأت الموقف امامها واضحاً وتمكنت من اختيار الحل

www.elromancia.com

الأنسب لهذا الموقف الحرج.

وهكذا، هرعت الى المطبخ واحضرت حبلاً اوثقت به يدي الغجري لتأمن شره اذا افاق. ثم تفحصت الجرح في رأسه وتبين لها انه سطحي ولا يشكل اي خطر على حياته.

فتح الرجل عينيه فجأة وحدق فيها باستغراب:

- من أنت؟ اين انا؟

شعرت لين نحوه بالشفقة ولم تستطع ان تكرهه رغم ما سببه لها حتى الآن من مصائب وويلات.

- انا زوجة اخيك يا بوريل.

تخبط الرجل محاولاً تحرير يديه ثم صاح:

- من اوثق يدي؟

- الا تذكر انك هاجمتني فرفستك واوقعتك ارضاً فاصطدم رأسك بحافة الموقد؟ ولكن لا تقلق فقد داويت الجرح البسيط وسيلتئم بسرعة.

ظل الغجري صامتاً لبرهة حتى استوعب ما سمع.

- فشلت مرة اخرى في النيل من زوجة اخي. لو نجحت لكان انتصاراً باهراً...

توقف بعد ان داهمه الألم ثم سأل:

- اين رادولف؟

- انه يبحث عنك كما ابلغتك سابقاً.

قال بصوت قلق:

- هل سيعود الى هنا؟ لا يجب ان يجدني بأي ثمن، حلي وثاقي والا جعلتك تندمين على فعلك حيث لا ينفع الندم!

حاول بوريل النهوض لكنه تعثر ووقع على وجهه، فنظرت لين اليه متأسفة على حاله. حزنت لرؤية رجل بهذه القوة والوسامة مطروحاً على الأرض اسير حبل واسير غرائزه الشريرة.

- ارجوك، حلي وثاقي!

كادت لين ان تذعن لتوسله ولكن عقلها سيطر على انفعالات قلبها الرقيق. فجلست على الكنبة تحدق فيه وتنتظر مجيء زوجها ليتولى حل معضلة اخيه.

ما اكثر الفوارق بين رادولف وبوريل، هذه الفوارق لم تلاحظها لين في السابق. الأول يهتم باناقته ونظافته اما الثاني فقذر لا يعرف للنظافة معنى. كان يكفي لين ان تنتبه لأظافر بوريل حتى تفرقه عن اخيه، ولكنها لا تلام لأنها كانت تتصرف مدفوعة بالخوف والرعب.

شخصت عينا بوريل بوجه لين فتذكرت كلمات اولاف عنه وعن الحياة التي اختارها والتي لا يحبذها رادولف العامل على مساعدته للتخلص من عاداته القبيحة.

- رادولف يريد ان يتحدث اليك في امور هامة.

- ماذا يريد مني اخي المحب الا يكفيه انه سلب اموالي ونال التركة بكاملها على رغم كوني اكبر منه؟ كان محظوظاً لما اخذه جدانا وتعهدا بتربيته وتعليمه في حين بقيت شريداً في الطرقات. تصوري انهما منحاه اسم العائلة الكريمة!

سألته لين اذا كان يريد دواء مسكناً فرفض وتابع تظلمه:

- لقد نزعاه من مخيم الغجر عندما كان في السادسة عشرة وترعرع كارستقراطي توافرت امامه سبل العيش الواسعة! ولماذا حصل ذلك؟ لأن جدي العزيزين شعرا بتأنيب الضمير لما لقيته امنا من ذل وهوان على ايديهما بعد ان نبذاها لأنها فرت مع رجل غجري وقعت في غرامه. ولم يكفهما طردها بل اعتبراها ميتة ورفعا علماً اسود على قبة القصر للدلالة على ذلك. وبعد موتها ارادا التعويض عن غلطتهما تجاهها فاستفاد من ذلك اخي العزيز.

تمتمت لين بعد ان سمعت القصة وعرفت حقيقة زوجها:

- رفعا علماً اسود... عن اي قصر تتكلم؟

- قصر آل دوغي بالطبع! لست بحاجة لأن اعلمك بانك متزوجة من سيد احد اكبر القصور ورأس احدى انبل العائلات في ايرلندا!

وهذا المركز من حقي لا من حق رادولف!

- اهدأ يا بوريل.

نصحته لين بالهدوء وهي ترتعد بدورها غير قادرة على استيعاب الحقيقة الصاعقة. اللوحة التي رأتها في قصر دوغي كانت لوالدة رادولف. رادولف هو السيد دوغي صاحب القصر وسيد الأراضي! وهو اعاد الاعتبار الى امه المنبوذة واعاد تعليق اللوحة في القصر. ولكن لماذا اختاره جداه دون اخيه بوريل الذي بقي متشرداً في المخيمات؟

تكلم بوريل بعد قليل بصوت منخفض وحزين:

- علي الذهاب قبل مجيء رادولف فأنا تحاشيته لمدة طويلة ولا ارغب في لقائه الآن! قصدت ان اسبب له الكثير من المشاكل والعار، وتوجت افعالي المشرفة بمحاولة قتل ماندا ولكن اللعينة لا تموت! آه كم اردت في تلك اللحظة ان الصق برادولف نعت شقيق القاتل الغجري الخطير بوريل!

توقف بوريل فجأة ونظر الى النافذة بينما هبت لين من مقعدها، بعد ان سمعت صوت السيارة، لتلاقي زوجها. نظرة واحدة الى وجهه كانت كافية لترى خيبة الأمل وفشله في اتمام مهمته، ولكن الزوجة سارعت الى الاعلان:

- عزيزي. رادولف، بوريل هنا!

- بوريل؟ اين هو؟

دخل رادولف البيت راكضاً غير قادر على الانتظار لحظة اخرى ليبت الأمور مع شقيقه.

وعلى الفور سمع صوت بوريل يصيح من الداخل:

- لعن الله هذه المرأة فلولاها لكنت الآن اسرح على هواي في التلال الواسعة! اهلاً يا شقيقي المحترم! ماذا في جعبتك الآن وقد امسكت بي؟ قل ما عندك ودعني ارحل لأني لا ارغب في البقاء معك ثانية واحدة!

- من حقك ان تبقى هنا وان تبقى في القصر ما شئت.

توقف رادولف عن الكلام عندما دخل الى الغرفة ورأى اخاه ممدداً على الأرض.

- ماذا حل برأسك وبيديك؟

وقفت لين تنتظر ماذا سيقول بوريل الذي اخذ يضحك كالمجنون وبريق الاثارة والشر في عينيه.

- لقد اخفت عروسك الناعمة يا شقيقي العزيز، ولو لم يخني الحظ لكنت تمتعت معها بوقت جميل.

رأت المرأة زوجها يمتلىء غضباً ويستعد لمعاقبة بوريل على ما فعله بأقسى طريقة.

- ماذا حدث يا لين؟ هل اصابك بوريل بأي اذى؟

لم يدع بوريل لين تجيب على السؤال فتولى المهمة عنها:

- لا تخف فالوقت لم يسمح لي بالذهاب معها حتى النهاية. اضعت الفرصة لما رفستني وطرحتني ارضاً!

وثب رادولف على اخيه والشرر يتطاير من عينيه فخشيت المرأة ان يقع ما لا تحمد عقباه. وهرعت تمسك بيد زوجها متوسلة:

- ارجوك يا رادولف، لا تفعل شيئاً. اخوك يحتاج الى الشفقة لا الى المعاقبة.

رق رادولف لكلام زوجته وهدأ غضبه بعد ان نظر الى عينيها المليئتين بالرأفة والرحمة. وبذلك تحاشى استعمال العنف مع اخيه المذنب فاكتفى بالقول:

- لنشكر الله يا لين على انك لم تصابي بأذى رغم انه ولا بد سبب لك بعض الخوف.

نظر رادولف الى اخيه واكمل بحدة:

- الفتاة مصابة بجروح بليغة!

- كنت آمل في موتها لما جئت هنا هرباً من الشرطة، ولكن سوء الطالع جعلني التقي بك في هذا المكان اللعين.

ـ ابلغني اولاف انك آت. متى وصلت؟

لما ذكر بوريل ساعة حضوره نظر رادولف الى زوجته مستفهماً.

ـ سمعت ضجة في الليل ولكني ظننت انك وصلت ولم تشأ ازعاجي يا عزيزي.

هز رادولف رأسه بتفهم وقال:

ـ ولا شك انك اعتقدت اني شغلت غرفة اخرى للسبب نفسه.

ـ تماماً.

لم تزد لين ولكن بوريل، بعد ان اقنع شقيقه بحل وثاقه، تكفل بسرد كل ما حصل منذ الليلة الماضية وحتى الساعة. في ذلك الوقت كانت لين تراقب زوجها ينفعل ويعض على اسنانه ضابطاً نفسه حتى لا يهجم على بوريل ويسحقه.

بعد ان استمع الى سرد اخيه التفت الى زوجته وقال:

ـ كونت فكرة صغيرة عني الآن، اليس كذلك؟

ساهم الشعور بالذنب ودقة الموقف في دفع الدماء الى وجهها، فاصطبغت وجنتاها بحمرة زادتها سحراً.

ـ اعذرني يا رادولف فتصرفاتي معك كانت مخجلة.

ـ لا اعتقد يا حلوتي ان تصرفاتي كانت افضل.

القت لين نظرة خاطفة على الجرح في وجه زوجها وقالت:

ـ سأنسحب الى المطبخ لأحضر طعام الغداء فلا بد ان لديكما الكثير لتقولانه.

ـ ابقي يا عزيزتي فوجودك هنا يوفر علي الكثير من الشرح والكلام.

ـ ولكنها مسألة خاصة لا علاقة لي بها.

ـ انت زوجتي ولن اكتم عنك شيئاً، فمن حقك الاطلاع على الحقيقة.

امتلأ قلب لين بالسعادة لثقة زوجها بها، في حين كان بوريل يستمع اليهما مطأطأ الرأس مهيض الجناح، تخفي عيناه دموع الندم

والأسف على حياته الضائعة.

جلست لين على كنبة قرب النافذة تستمع الى «محضر الجلسة» بين التوأمين الغجريين.

بدأ رادولف الكلام بصوته الراقي ونبرته المتعالية:

ـ حسناً يا بوريل مالىء الدنيا وشاغل الناس! جبت البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عنك، ولكن لننس الماضي لأن ما فات مات، ولا اطلب منك الآن سوى قبول نصف التركة.

ـ لا! لن آخذ شيئاً فأنت سرقتني!

لم يستطع بوريل هذه المرة كبت دموعه فانهمرت من عينيه بغزارة ادمت قلب لين.

توجه رادولف الى لين شارحاً كيف ورث وحده ثروة عائلة دوغي كلها: هربت والدته، وهي صبية يافعة بعد، مع شاب غجري وسيم كان مخيماً مع عشيرته في مكان قريب من القصر. وهكذا نبذها اهلها ولم يلتفتوا اليها رغم رسائلها المتكررة والتي ابلغتهم في احداها انها حامل. ولم تكن تعلم بالطبع ان في احشائها طفلين!

اسند رادولف ظهره الى حائط الموقد واكمل سرد الحكاية المحزنة:

ـ ماتت امي خلال الوضع بعد ان كان والدي قد هجرها لأنه ملّها، ومع الأسف الشديد عهد بتربيتنا الى عائلتين مختلفتين فافترقنا ونحن طفلان.

تمتمت لين والدموع تطفر من عينيها لهذه القصة المحزنة:

ـ آه ما اقسى القدر!

علق بوريل على كلامها بحدة:

ـ ما اقساه تجاهي لا تجاهه! فقد وضعت في عهدة رجل وامرأة شريرين لم يكلفا نفسيهما مشقة تربيتي. بينما قاد الحظ رادولف الى امرأة طيبة رعته احسن رعاية واطلقت عليه اسم رادولف تيمناً بنبلاء البلاد. ولم تكتف المرأة بذلك بل اخذت تشيع انه ولد قبلي مع ان العكس هو صحيح!

ـ لم يستطع احد اثبات من هو الأكبر. وفي اي حال، الفرق بين ولادة توأم وولادة آخر لا تتعدى الثواني.

ـ لا تحاول اخفاء الحقيقة يا سيد رادولف. والزوجان اللذان رباني، تريزا وأوستن اكدا لي اني اكبر منك.

ـ لا استطيع مناقشة قولك يا بوريل لأني لم اكن واعياً ومدركاً عندها!

لم يقتنع بوريل بل اصر على قوله:

ـ انا اكبر منك!

تجاهل رادولف كلمات اخيه واكمل يسرد القصة قائلاً ان اولاف كان يعلم منذ البدء هوية ام الطفلين الحقيقية، لكنه لم يطلع احداً على ذلك سوى من تعهد بتربيتهما. وذلك لاقتناعه بأن الجدين لن يلتفتا اليهما بسبب العار الذي سببته الوالدة للعائلة.

هنا تدخل بوريل مقاطعاً:

ـ سمعت ان اولاف عاد عن رأيه واتصل بجدينا ليلعمهما بأن رادولف هو حفيدهم مهملاً اياي. وسبب ذلك اعتقاده ان رادولف يحمل من طباع ونبل والدته الكثير ليجعله لا يستحق حياة المخيمات القاسية.

اكمل رادولف مصححاً ادعاءات اخيه:

ـ لم يتصل اولاف بجدي لأنه لم يشأ ان يسبب اي الم للسيدة التي ربتني، وانا مسرور لأنه فعل ذلك. اعجبت لين بشهامة زوجها الذي يهتم بمشاعر سيدة غجرية رعته اكثر من التنعم بالجاه والثروة، كما تذكرت كلماته لاولاف والتي قال فيها انه لكان فعل الشيء نفسه لو كان في موقعه.

اكمل الرجل:

ـ لو تركتها باكراً لصارت حياتها فارغة. وانا احببتها فعلاً لأنها كانت امرأة طيبة علمتني القراءة والكتابة، زودتني بالكتب لأبني ثقافة معقولة. انفقت المال الوفير لتؤمن لي العيش الكريم.

توقف رادولف قليلاً وزاد بكل جدية:

ـ لكن حياة الغجر وبيئتهم اثرتا في شخصيتي بالطبع فلم اكن ذلك الشاب المحترم واوقعتني طباعي الشرسة التي ورثتها عن والدي في مشاكل عديدة.

مررت لين ملاحظة ملطفة:

ـ ولكنك ورثت الطيبة والنبل عن والدتك.

تدخل بوريل محدقاً في الزوجين:

ـ كيف تعرفتما الى بعضكما وتزوجتما بهذه السرعة؟ انت لم تقابلي رادولف قبل لقائنا في المخيم لما تعطلت سيارتك، اليس كذلك؟

نظر رادولف الى زوجته مستغرباً:

ـ تعطلت سيارتك؟ عم يتكلم بوريل؟

اطلق بوريل ضحكة عالية وقال:

ـ الا تعلم اني كدت انالها في المرة الأولى!

لم تكن لين راغبة في سماع بوريل يتكلم عن الموضوع ويضع القصة في قالبه الخاص فأمرته بالسكوت:

ـ اصمت! دعني افهمك ما حدث يا رادولف.

ـ تفضلي لأن القضية اصبحت معقدة فأنت لم تذكري لي شيئاً عن معرفتك ببوريل.

اطلعته المرأة على كل ما حصل بتفاصيله من دون ان تهمل شيئاً. ولما انتهت كانت علامة الاجرام بادية في عيني رادولف الناظر الى اخيه بكره.

ـ ايها الشرير! علي ان اخنقك بيدي لا ان اعرض عليك المساعدة!

كان من الطبيعي ان يتراجع رادولف عن مساعدة اخيه بعد اطلاعه على ما حدث وعلى تعرض شرف زوجته وسلامتها للخطر لولا تدخل ماندا. لكن لين تدخلت وتمنت على زوجها ان ينسى الموضوع ويساعد اخاه وعفا الله عما مضى!

وبالفعل رضخ رادولف لمشيئة زوجته واعرب عن استعداده لمعاونة بوريل ليحظى بحياة شريفة.

وعوض ان يظهر بوريل الامتنان لأخيه قال ساخراً:

- لكنك لن تسامحني بالطبع.

- كيف اسامحك بعد ما حدث بيني وبين لين من اخطاء بسببك!

هز بوريل كتفيه علامة عدم الاكتراث قائلاً:

- لا يهمني ما حصل بينكما ولكن ما يحيرني هو عدم استطاعة زوجتك التفرقة بيني وبينك الا هذا الصباح!

ضحك بوريل واكمل:

- آه لو انها لم تتعرف الي وسمحت لي...

لم يدعه رادولف يكمل اذ قفز اليه وهم بضربه لولا تدخل لين في اللحظة الأخيرة وفصلها بين الرجلين.

- لا يا رادولف، لا تضربه لأنه يحتاج الى من يشفق عليه لا من يلومه! قدر وضعه التعس وقارنه بما حظيت. ارجوك تفهم حالته وساعده!

ترقرقت الدموع في عينيها ورمقت زوجها بنظرة رقيقة:

- بوريل يبقى شقيقك الوحيد على رغم تفريق القدر بينكما. عليك ان تشركه في مصيرك، فاما ان تكونا ثريين واما ان تكونا فقيرين.

ارتسمت علامات الدهشة والتعجب على وجه كل من الرجلين.

- اتستطيعين مسامحة اخي يا لين؟

قال رادولف ذلك بينما تمتم شقيقه:

- انها امرأة... مختلفة. لم أر في حياتي مثل هذه النعومة ومثل هذا التسامح. يا ليتني قابلت واحدة مثلها، لا مثل ماندا المفترسة...

طمأنته لين بصوتها الحنون:

- ستجد من يعتني بك ويحبك يا بوريل فلكل رجل امرأة تناسبه.

عنت لين ما تقول لأن بوريل ليس شريراً بطبيعته، بل هو عاش

في بيئة غير صالحة وترعرع في محيط يؤمن بالقوة وبالخروج على القانون وسيلة للتفوق والفوز.

تكللت لين محاولة تخفيف وطأة التوتر السائد بين الغجريين:

- اكمل القصة يا رادولف. كنت تخبرنا عن المرأة التي ربتك وثقفتك.

بعد موت مربية رادولف مورين، بعث اولاف برسالة الى جدي رادولف يطلعهما على الوضع ويرجوهما تعهد رادولف وقبوله للعيش معهما في القصر. رحب العجوزان الثريان بالفكرة لأنهما كانا وحيدين لا وريث لهما سوى قريب بعيد يعيش في اميركا.

قاطع بوريل شقيقه معترضاً:

- انت تهمل جزءاً مهماً من القصة وهو ان اولاف لم يكلف نفسه مشقة البحث عني.

- ربما لا تعرف يا بوريل ان اولاف سمع ان العربة التي كنت تعيش فيها مع الزوجين احترقت ومات جميع من فيها.

- كان عليه التأكد من ذلك لا تصديق الأخبار بسرعة، فأنا نجوت من الحريق ولم اصب الا ببعض الحروق البسيطة.

ازاح بوريل الشعرات السود واراهما اثر الجرح في مفرقه ثم تابع:

- لنفترض ان اولاف لم يعرف بوجودي حياً الا منذ سنتين، فلماذا انتظر اسابيع عدة ليطلعك على الأمر؟ ربما خشي من معرفتك ان لك اخاً شريراً...

- لا ادري ما الذي شغله عن اطلاعي على وجودك.

- لم يرد افساد حياة رجل محترم باقحام اخ شرير ومتشرد فيها. فأنت نشأت في احسن البيوت وارقاها بينما اضطررت لشق طريقي وحيداً منذ ان كنت في العاشرة. والله وحده يعلم كم واجهت من الصعوبات لأستطيع الصمود.

ارتجفت شفتا بوريل فظنت لين انه سيعود الى البكاء، سيما وانها هي لم تكن بحاجة الى تشجيع لتنهمر دموعها. حاول رادولف تبرير

موقفه وتصحيحه:

ـ دعوتك مرات ومرات لتأتي وتعيش معي في القصر حيث تبدأ بتحصيل العلم والثقافة وتعاشر من يجب ان تعاشرهم من الناس. رفضت ذلك مع انه من حقك التمتع بنصف الأموال.

اكمل رادولف بكل اسى:

ـ اعتبرت ان في الامر تصدقاً ولكنك مخطىء. لأنني لم اعرض عليك الا حقك، وكن على ثقة اني ما زلت عند عرضي ومستعد لنصبح صديقين نتكاتف في مواجهة مشاق الحياة وقساوتها.

تساءلت لين عما يمكن ان يكون اكثر عدالة من هذا العرض وحبها لزوجها يتضاعف لما خبرته فيه من نبل وشهامة. نظرت اليه مبتسمة فرد الابتسامة بأنعم منها وقلبها يخفق طرباً بالحب الكبير.

فكر بوريل ملياً بالأمر واعلن:

ـ رفضت دعواتك السابقة لأني كنت مقتنعاً اني اكبر منك سناً، واني خدعت وحرمت من المال والتربية. اردت واريد ان اصبح رجلاً محترماً ولكن تغييري صعب وقد بلغت الثلاثين. كنت محظوظاً يا رادولف لأنك تركت حياة الغجر وانت بعد فتى يافع، اما ان تبدأ عملية تحول تنقلك من ضفة الى ضفة وانت في الثلاثين فرابع المستحيلات. تفهم رادولف رأي اخيه معترفاً انه، على رغم كونه في السادسة عشرة، وجد صعوبة قصوى في التخلص من عاداته الغجرية والتأقلم في نمط الحياة الارستقراطية المعقدة.

ـ لا مجال للمقارنة يا لين بين تعقيدات وشكليات حياة القصور وحرية وفلتان حياة الغجر. ولا انكر اني عقدت العزم مراراً على الفرار والعودة الى المخيم لأعيش بين قومي واصحابي.

قدرت لين لما سمعت ذلك مدى شجاعة زوجها وقوة ارادته اللتين جعلتاه يصمد ويبقى في القصر مع جدين عجوزين متعجرفين، ولا عجب في كونهم كذلك، شأن كل اصحاب الثروات الطائلة والألقاب النبيلة. لا ريب في ان رادولف بذل مجهوداً جباراً ليعتاد على

متطلبات حياة القصور ويتخلى عن اللامبالاة التي طبع عليها في حياته الغجرية.

علق بوريل على كلام اخيه:

ـ لو هربت من القصر لربما كنت انا مكانك الآن.

ـ ربما.

قطبت لين حاجبيها غير قادرة على تصور بوريل المتشرد في ثياب ارستقراطي عريق، فهو كان سيفشل حتماً في اعتياد حياة القصور. ولا شك ان بوريل مدرك لهذه الحقيقة ويتصرف، وان ليس ظاهرياً، على اساسها. اعاد رادولف سؤاله:

ـ ما اريد ان استوضحه منك يا بوريل هو هل تقبل بعرضي طارداً من ذهنك فكرة التصدق والحسنة؟

ـ اتعرض علي السكن في القصر؟

ـ اعتذر اذا قلت ان هذا مستحيل لأنك ارعبت زوجتي مرتين وهي ستنزعج من وجودك فيه.

ـ هذا يعني انك غير مؤمن بامكانية عودتي الى الطريق الصواب.

أضاف بوريل قبل ان يتمكن اخوه من التعليق.

ـ لن استطيع يا رادولف معرفة سبب انشغالك بي وبحثك الدائم عني. جبت مخيمات البلاد كلها مرتدياً ثياباً لا تليق بمقامك حتى لا تشعر الغجر بأي نقص، وشاغلاً عربات قذرة لا تصلح لأن تكون مكاناً لرمي النفايات في قصرك... والله لو كنت مكانك لتخليت عن البحث مرسلاً اياك الى الجحيم!

اكتفى رادولف بابتسامة خفيفة وبوريل ينظر اليه مقارناً بين طريقة حياة رادولف وتشرده الدائم. ثم وضع الثاني رأسه بين يديه وقال يائساً:

ـ اتعجب لماذا انبأك اولاف بوجودي مع ان سلوكي كان يسبب له القرف! انا لص، محتال، قاطع طريق... حتى الغجر لا يرضون بوجودي بينهم... لا حل لي الا بالاختفاء عن انظار الناس!

لكم صار بوريل بعد اعترافه هذا مختلفاً عن مظهر الرجل الشرير. هو يكره نفسه لأنه انساق وراء غرائزه وميوله الهدامة. ولكنه تسلح بالشجاعة وانهار معترفاً باخطائه، من دون ان يجد حلاً لها سوى التواري.

نظرت لين الى زوجها فرأته يفكر بعمق عن مخرج لمشكلة بوريل، وارادت ان تتكلم لكن زوجها سبقها:

- لا احد يكرهك يا بوريل فأنت عدو نفسك الوحيد. لماذا لا تطوي صفحة الماضي وتبدأ حياة جديدة؟ اخبرني اولاف مرة انك بحاجة الى رأسمال صغير لتهاجر الى استراليا وتؤسس مصنعاً للخشب مع شريك، فهل ما يزال المشروع قائماً؟

- لا اعلم... فالرجل سافر الى استراليا وسمعت انه.. يجد صعوبة في تسيير العمل بسبب ضائقة مالية.

- المال ليس مشكلة فمتى قررت العمل امدك بما يلزم.

- انا مصمم على ذلك ومستعد للسفر الى استراليا يا رادولف.

تنفس رادولف الصعداء ونظر الى زوجته مبتسماً لأن نهاية الأزمة قد اقتربت.

- وهل تقبل بنصف اموال التركة؟

- ولكن المال موصى به لك؟

- اموال عائلة دوغي يا بوريل حق مشترك علينا تقاسمه بالتساوي.

- لا اجرؤ على اخذ نصف الأموال في الوقت الحاضر، لأنني لا اجد نفسي قادراً على ادارتها. اعطني ما يلزم لانشاء المصنع واحفظ الباقي، فان احتجت الى شيء آتي اليك.

- كما تريد يا بوريل. سأعمل على مدك باللازم في اقرب وقت...

قاطعه رنين الهاتف فهرع ورفع السماعة خائفاً من ان يكون في الأمر سوء، لكنه ما لبث ان انفرجت اساريره وابلغ زوجته وشقيقه:

- ماندا بحالة جيدة ولن تتقدم بشكوى الى النيابة.

اكتفى بوريل بالقول:

- يسرني سماع ذلك.

- تعلم يا بوريل ان كونيل اوقع نفسه في مشاكل عديدة وهو خائف ويريد السفر ليسوي اوضاعه ويبني مستقبله. ما رأيك باصطحابه الى استراليا فأنا وعدته بالمساعدة؟

نظر رادولف الى زوجته وقال ضاحكاً:

- لا تظني ان كونيل كان ينوي مساعدتك على الفرار فقد اعترف لي بكل شيء. الست مسرورة يا عزيزتي لأنه لم يساعدك؟

- نحن لم نعد الى المخيم لأعلم حقيقة نواياه.

- صحيح يا لين ولكنه كان موجوداً في احد المخيمات التي مررنا بها.

استوضح بوريل شقيقه:

- ماذا عن كونيل والهرب؟

لم يجب رادولف بل وعد:

- سنطلعك على ما حصل في المستقبل عندما تأتي لزيارتنا.

وافق بوريل مدركاً في قرارة نفسه انه متى غادر هذا المكان لن يعود ابداً.

- لنعد الى موضوع كونيل يا بوريل. انه شاب ذكي ويستحق ان يتمتع باكثر مما تقدمه حياة الغجر. واعتقد بانه سيكون لك عوناً كبيراً في اعمالك.

- لا مانع عندي في اصطحابه.

- اتمنى لك وله كل التوفيق وآمل بأن تتوصل الى تحقيق طموحاتك بالعزم وقوة الارادة.

وقف بوريل على قدمين مرتجفتين واخذ يبحث عن الكلمات المناسبة ليعتذر عما حصل، لكن شقيقه لم يود احراجه فسارع الى القول:

- يجب ان ترتاح الآن وتتناول حبوباً مزيلة للصداع.
- فكرة حسنة. اريد ان اسألك شيئاً اخيراً يا رادولف، هل تهتم بالترتيبات القانونية لسفري؟
- لا تشغل فكرك بهذه الأمور واتكل علي. اما الآن فادخل الى غرفة النوم وخذ قسطاً من الراحة.

بعد عشر دقائق جلس الزوجان وحيدين على الشرفة يتأملان زرقة البحر الهادىء.

- اخيراً يا حبيبتي الغالية لم يعد هناك ما يعكر صفو حياتنا، اليس كذلك؟
- اعتقد ان مشكلة بوريل انتهت.
- اشكر الله على ذلك.

اخذ يداعب شعرها بحنان واضاف:

- كنت شهمة جداً تجاهه يا حلوتي على رغم ما فعله معك. آه كم سبب الكلام على اللقاء الاول لبساً وغموضاً، ولهذا كنت استغرب موقفك مني.
- لو تحدثت مرة عن تعطل سيارتي...
- في اي حال اصبحت هذه الأمور جزءاً من الماضي بالنسبة الي.
- وهو كذلك.
- كنا ضحية ظروف معاكسة ولكننا خرجنا سالمين.

فكر رادولف قليلاً قبل ان يزيد:

- اتؤمنين بالحب من اول نظرة؟
- ربما.
- منذ ان رأيتك في الغابة علمت انك الفتاة التي ابحث عنها. غرقت في غرامك حتى اذني وتعذبت كثيراً لاحتقارك اياي ولتعجرفك.
- الم تتساءل يوماً لماذا ضربتك بالسوط؟ اظننت اني فعلت ذلك بدون سبب؟

- حدث كل شيء بسرعة لم تدع لي مجالاً للتفكير وانجررنا بعد ذلك وراء المواقف الانفعالية والرغبة بالانتقام. اعترف لك يا لين اني اعاني من مركب نقص كوني غجرياً، فأنا اخاف من ان تكون بعض تصرفاتي نابعة من ماضي ومن انتمائي الاجتماعي. وانت زدت الطين بلة عندما صنفتني غجرياً متشرداً حقيراً.
- انت مخطىء يا حبيبي، فجل ما في الأمر اني كنت خائفة من اعتدائك علي دون ان يخطر لي ان الشخصين مختلفان. لا تتصور كم كانت المفاجأة كبيرة عندما رأيتك في الغابة فظننت انك لحقت بي من المخيم حيث تعطلت السيارة حتى تكمل ما بدأته هناك.
- من عجائب الصدف ان تلتقي ببوريل ثم بي في الغابة، ولكن القدر لعب لعبته لجمعنا.

رمقته بنظرة حنان ووضعت يدها على الجرح ثم همست:

- اتعتقد ان اثره سيزول؟
- بالطبع سيزول.
- ان لم يحصل ذلك لن اغفر لنفسي ابداً.

ضحك رادولف وقبلها بحنان على جبينها:

- سنذهب غداً الى بيتنا حيث نبدأ برسم طريق حياتنا الصحيح.
- فكرة رائعة يا حبيبي.

كانت فرحة لين كبيرة الى درجة لا توصف، فالأمور تسارعت بشكل مثير في الاسابيع الاخيرة، ووجدت نفسها في عالم آخر لم تكن تحلم انها ستصبح جزءاً منه لما كانت تدفن اوقاتها وراء مكتبها وبين جدران شقتها الموحشة.

- اصحيح انك امضيت سنتين في البحث عن شقيقك؟
- نعم، ولكن ذلك لم يمنعني من الاهتمام بادارة اعمالي. تنقلت بين المخيمات بسيارتي. الا عندما التقيتك فقد كنت ذاهباً الى المخيم على الحصان لأنه قريب نسبياً من القصر.
- ولماذا تظاهرت بكونك غجرياً فظاً؟

- الن ننتهي من الاستجواب؟ حسناً، لأنك جرحت شعوري، واردت ان ارد لك الكيل كيلين. كدت، في مرات عديدة، اعترف لك بالحقيقة ولكن عنادي منعني.

دفنت لين رأسها في صدره وهمست:

- بذلك تعلمت ان احبك لذاتك دون النظر الى انتمائك، وانا سعيدة لأنك تعرف اني احبك من قبل اطلاعي على هويتك الحقيقية.

- اظن انك اكتشفت حقيقة مشاعري نحوك يوم كنا في السيارة.

- هذا صحيح يا رادولف. وان حاولت مقاومة هذا الحب لأن الحياة الغجرية لا يمكن ان تناسبني.

- ولكن مقاومتك كانت فاشلة!

- اعترف بذلك واني كنت مستعدة لمتابعة الرحلة معك حتى النهاية.

- الا تريدين الاطلاع على الخطة التي تحدثنا عنها؟

- بالطبع.

- لم اكن استطيع تصور نفسي اعيش بدونك يا لين. ففكرت ان ابتاع لك بيتاً خاصاً تعيشين فيه بحرية، مقابل سماحك لي برؤيتك مرتين يومياً. وبذلك تتخلين عن فكرة الفرار.

- اتربد معرفة رأيي الحقيقي في خطتك يا رادولف؟

- نعم.

- انها اغبى خطة رأيتها في حياتي!

- ولماذا؟

- لأنك تعلم انك لن تستطيع التقيد بها وانك ستجبرني بعد مدة على . . . على . . .

احمر وجهها خجلاً فيما رادولف يطلق ضحكة عالية تعبر عن الارتياح والسعادة.

- بالله عليك يا لين اجيبي بصراحة: هل كنت ستتقيدين بهذه

الخطة؟

ترددت المرأة في الاجابة وعيناها هاربتان من نظراته الطاغية.

- كنت. . . كنت سأنهار وأقوم باغرائك لتطرحها جانباً!

ضحك الزوجان راضيين بالسعادة التي طالما بحثا عنها حتى وجداها بعد عذاب وشقاء. طوق رادولف خصر زوجته وقاما يتنزهان في الحديقة حيث بدت الأزهار اكثر تفتحاً احتفاء بالحب الكبير.

- سنأتي الى هذا المنزل مرتين او ثلاثاً في السنة لقضاء العطلة.

- ان لهذا المكان في نفسي آثاراً حلوة يا حبيبي لاننا فيه وجدنا كنز السعادة الثمين.

لاحظ الغجري انزعاجاً على وجه زوجته فسألها:

- ما بك؟

- هل يعتبر زواجنا شرعياً؟

- يعتبر كذلك طبقاً لشريعة الغجر.

- وهل تعترف به السلطات الايرلندية؟

- لا اظن ولكننا سنصحح الوضع حالما نصل الى البيت.

تذكرت لين كل ما حدث منذ اختطافها حتى الساعة، كيف ارغمت على الزواج وعلى كتابة الرسائل الى اصدقائها. . . كيف بقيت سجينة العربة يترصدها الغجر. . . وتذكرت خصوصاً يوم اشبعها رادولف صفعاً. . . صارت هذه الاحداث ذكريات يمحوها حب رادولف والأمل الكبير المشرق بحياة سعيدة.

- هل ستجيبين على رسائل اصدقائك؟ فبغضها وصل الى القصر رداً على رسائلك.

- بكل تأكيد.

- وماذا ستقولين فيها؟

- سأقول اني متزوجة من اروع واطيب رجل على سطح الأرض.

- اتعنين حقاً ما تقولين؟

اكتفت لين بالنظر اليه والحب يملأ عينيها، فعلم الغجري انها ستكون في «قبضته» الى الأبد.

www.elromancia.com
مـــر مـــوريـــة